آداب قراءة القرآن الكريم

تصنيف: محمد جمال امام

١٩ جمادي أول ١٤٣٦ هـ

الموافق ١٠ مارس ٢٠١٥ م

فهرست

	الصفحة
أحاديث نبوية شريفة عن قراءة القرآن	٤
قراءة القرآن بغير وضوء	٥
الجهر بقراءة القرآن	٦
فضل سورة {قل هو الله أحد}	٦
فضائل القرآن	٨
جمع القرآن	١٢
تأليف القرآن	٢٢
أنزل القرآن على سبعة أحرف	٢٤
تفسير القرآن	٣٠
رأي ابن كثير في الاسرائليات	٣٢
اغتباط صاحب القرآن	٣٧
خيركم من تعلم القرآن علمه	٣٩
تلاوة القرآن	٤٢
القراءة عن ظهر قلب	٤٢
الترتيل في القرآن	٤٣
مد القراءة	٤٤

في كم يقرأ القرآن ٤٤

ما يلزم قارئ القرآن وحافظه من تعظيم القرآن وحرمته ٥٠

تبويب سور القرآن ٥٢

لغة القرآن وإعجازه ٥٦

التنويه عن أحاديث فصلت في فضل سور القرآن ٦٠

ملاحق

الملحق الأول: رسالة جواب العلم والإيمان أن {قل هو الله أحد} تعادل ثلث القرآن ٦٢

الملحق الثاني: جواهر القرآن لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي ٧٧

الملحق الثالث: تفسير الفاتحة للإمام الحافظ ابن كثير ٨١

أحاديث نبوية شريفة عن قراءة القرآن[1]

*(١١٥٩) حدثني القاسم بن زكرياء، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن شيبان، عن يحيى، عن محمد بن عبد الرحمن مولى بني زهرة، عن أبي سلمة قال (وأحسبني قد سمعته أنا من أبي سلمة)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرأ القرآن في كل شهر. قال: قلت إني أجد قوة. قال: فاقرأه في عشرين ليلة. قال: قلت إني أجد قوة. قال: **فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك**. (رواه مسلم)

*٥٠٥٤ - حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، عَنْ شَيْبَانَ، عَنْ يَحْيَى، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَوْلَى بَنِي زُهْرَةَ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، قَالَ وَأَحْسِبُنِي قَالَ سَمِعْتُ أَنَا مِنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي شَهْرٍ. قُلْتُ إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً حَتَّى قَالَ: فَاقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ (رواه البخاري)

*٥٠٤٠ - حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، قَالَ حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ، عَنْ عَلْقَمَةَ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مَنْ قَرَأَ بِهِمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ. (رواه البخاري)

*٢٥٢ - (٨٠٤) حدثني الحسن بن علي الحلواني، حدثنا أبو توبة (وهو الربيع بن نافع)، حدثنا معاوية (يعني ابن سلام)، عن زيد أنه سمع أبا سلام يقول حدثني أبو أمامة الباهلي، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه. اقرؤوا الزهراوين، البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما. اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة. قال معاوية بلغني أن البطلة السحرة (رواه مسلم)

[ش (الزهراوين) سميتا الزهراوين لنورهما وهدايتهما وعظيم أجرهما. (كأنهما غمامتان أو إنهما غيايتان) قال أهل اللغة الغمامة والغياية كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه سحابة وغيرة وغيرهما، قال العلماء المراد أن ثوابهما يأتي كغمامتين. (كأنهما فرقان من طير صواف)، وفي الرواية الأخرى كأنهما حزقان من طير صواف، الفرقان والحزقان معناهما واحد وهما قطيعان وجماعتان، يقال في الواحد فرق وحزق وحزيقة، وقوله من طير صواف، جمع صافة وهي من الطيور ما يبسط أجنحتها في الهواء. (تحاجان عن أصحابهما) أي تدافعان الجحيم والزبانية وهو كناية عن المبالغة في الشفاعة. (ولا يستطيعها) أي لا يقدر على تحصيلها]

* عن أَبي أُمامَةَ رضي اللَّه عنهُ قال: سمِعتُ رسولَ اللَّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم يقولُ: « اقْرَؤُا القُرْآنَ فإنَّهُ يَأْتي يَوْم القيامةِ شَفِيعاً لأصْحابِهِ» (رواه مسلم) .

[1] مقتطفات من مصنف "النهج المحمدي"

*١٩٤٧- حدثنا جرير، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الرجل الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب. (رواه أحمد)

٢٦٣ - (٨١٣) حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا عمي عبد الله بن وهب، حدثنا عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، أن أبا الرجال محمد بن عبد الرحمن حدثه عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن، وكانت في حجر عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ (قل هو الله أحد)، فلما رجعوا ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك. فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبروه **أن الله يحبه** (رواه مسلم)

*٢٦٩ - (٨١٧) وحدثني زهير بن حرب، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثني أبي، عن ابن شهاب، عن عامر بن واثلة أن نافع ابن عبدالحارث لقي عمر بعسفان، وكان عمر يستعمله على مكة فقال: من استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى. قال: ومن ابن أبزى؟ قال مولى من موالينا. قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل وإنه عالم بالفرائض. قال عمر: أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال **إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين**. (رواه مسلم)

* وعن ابن مسعودٍ رضيَ اللَّه عنهُ قالَ: قال رسولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم: مَنْ قرأَ حرْفاً مِنْ كتاب اللَّهِ فلَهُ حسنَةٌ، والحسنَةُ بِعشرِ أَمثَالِهَا، لا أَقول: الم حَرفٌ، وَلكِن: أَلِفٌ حرْفٌ، ولامٌ حرْفٌ، ومِيمٌ حرْفٌ» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (ورد في رياض الصالحين)

قراءة القرآن بغير وضوء

*٢٩٧ - (١) أخبرنا مالك، أخبرنا نافع، عن ابن عمر أنه كان يقول: لا يسجد الرجل ولا يقرأ القرآن إلا وهو طاهر. (ورد في مالك)

قال محمد: وبهذا كله نأخذ وهو قول أبي حنيفة - رحمه الله - إلا في خصلة واحده: لا بأس بقراءة القرآن على غير طهر إلا أن يكون جنبا.

قوله: إلا في خصلة واحدة، كأنه حمل قول ابن عمر: إلا وهو طاهر على الطهارة المطلقة من الصغرى والكبرى فاستثنى من قوله (وبهذا كله نأخذ) قراءة القرآن على غير وضوء لثبوت جواز ذلك، بالمرفوع والموقوف فأخرج أصحاب السنن الأربعة وابن حبان وصححه الحاكم والترمذي عن علي: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحجبه أو لا يحجزه عن القرآن شيء ليس الجنابة. وأخرج مالك أن عمر كان في قوم يقرؤون القرآن فذهب عمر لحاجته ثم رجع وهو يقرأ القرآن فقال له رجل: تقرأ القرآن ولست على وضوء؟ فقال عمر: من أفتاك هذا ؟ أمسيلمة الكذاب؟ وورد عن علي أيضا قراءة القرآن على غير وضوء (وأما قراءة المحدث القرآن قال ابن رشد: ذهب الجمهور إلى الجواز، أما مس المصحف فقال الجمهور- منهم

الأئمة الأربعة – لا يمسه إلا طاهر من الحدثين، لقوله تعالى:{لا يمسه إلا المطهرون} خلافا لداود وابن حزم وغيرهما من السلف).

*١٠١١- حدثنا وكيع عن.. عن علي قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي الحاجة، فيأكل معنا اللحم ويقرأ القرآن، ولم يكن يحجزه، أو يحجبه، إلا الجنابة. (رواه أحمد)

*قوله : ثم قرأ قال النووي : فيه جواز القراءة للمحدث وهذا إجماع المسلمين وإنما تحرم الجنب والحائض (ورد في مسلم)

*٨٤٠- حدثنا محمد بن جعفر..عن عبد الله بن سلمة قال: دخلت على على بن أبي طالب أنا ورجلان..ثم دخل من المخرج فقضى حاجته، ثم خرج فأخذ حفنة من ماء فتمسح بها، ثم جعل يقرأ القرآن، قال فكأنه رآنا أنكرنا ذلك، ثم قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي حاجته ثم يخرج فيقرأ القرآن ويأكل معنا اللحم، ولم يكن يحجبه عن القرآن شيء ليس الجنابة. (رواه أحمد)

*١١٧ - (٣٧٣) حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء، وإبراهيم بن موسى، قالا حدثنا ابن أبي زائدة، عن أبيه، عن خالد بن سلمة، عن البهي، عن عروة، عن عائشة قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه (رواه مسلم)

الجهر بقراءة القرآن

٦٦٣- حدثنا خلف، حدثنا خالد، عن علي بن أبي طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يرفع الرجل صوته بالقراءة قبل العشاء وبعدها يُغلِط أصحابه وهم يصلون. (رواه أحمد)

٧٥٢- حدثنا يزيد بن هارون..عن..عن علي بن أبي طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يجهر القوم بعضهم على بعض بين المغرب والعشاء بالقرآن. (رواه أحمد)

٨١٧- حدثنا عفان..عن..عن علي بن أبي طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يرفع الرجل صوته بالقرآن قبل العتمة وبعدها يُغلِط أصحابه في الصلاة. (رواه أحمد)

فضل سورة قل هو الله أحد

*١٧٣ - أخبرنا مالك، أخبرنا عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي صعصعة عن أبيه، أنه أخبره عن أبي سعيد الخدري، أنه سمع رجلا من الليل يقرأ:{قل هو الله أحد} يرددها، فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم كأن الرجل يقللها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن" (ورد في مالك)

فهي ثلث القرآن وقيل: **ثوابها يضاعف بقدر ثلث القرآن**. وإليه ذهب أحمد وإسحاق فإنهما حملا الحديث على أن معناه **أن لها فضلا في الثواب تحريضا على تعلمها، لا أن قراءتها ثلاث مرات كقراءة القرآن**. قال: وهذا قوله: لا يستقيم ولو قرأها مائتي مرة. إنها لتعدل (أخرجه البخاري في -كتاب فضائل القرآن- باب فضل: قل هو الله أحد) أي: **تساوي ثلث القرآن، لأن معاني القرآن ثلاثة علوم: علم التوحيد، وعلم الشرائع، وعلم تهذيب الأخلاق. وسورة الإخلاص يشمل على القسم الأشرف منها الذي هو كالأصل للقسمين وهو علم التوحيد**. وقال الطيبي: ذلك لأن القرآن على ثلاثة أنحاء: قصص وأحكام وصفات الله، و{قل هو الله ...} متمحضة للصفات.

*٢٦٠ - (٨١١) وحدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا محمد بن بكر، حدثنا سعيد بن أبي عروبة ح، وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عفان، حدثنا أبان العطار، جميعا عن قتادة بهذا الإسناد، وفي حديثهما من قول النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل قل هو الله أحد جزءا من أجزاء القرآن. (رواه مسلم)

[ش (فجعل قل هو الله أحد جزءا من أجزاء القرآن) قال المازري: قيل **معناه أن القرآن على ثلاثة أنحاء: قصص وأحكام وصفات لله تعالى، وقل هو الله أحد متمحضة للصفات، فهي ثلث وجزء من ثلاثة أجزاء**].

*****

فضائل القرآن

يقول الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي في كتابه "تفسير القرآن العظيم"[٢]:

حدثنا المثنى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني معاوية عن علي-يعني ابن أبي طلحة- عن ابن عباس في قوله:{وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ}، قال: المهيمن: الأمين، قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله. وفي رواية: شهيدا عليه. وقال سفيان الثوري وغير واحد من الأئمة عن أبي إسحاق السبيعي، عن التميمي، عن ابن عباس:{وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ}قال: مؤتمنا. وبنحو ذلك قال مجاهد والسدي وقتادة وابن جريج والحسن البصري وغير واحد من أئمة السلف. وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يقال إذا رَقَب الرجل الشيء وحفظه وشهده: قد هيمن فلان عليه، فهو يهيمن هيمنة وهو عليه مهيمن، وفي أسماء الله تعالى: المهيمن، وهو الشهيد على كل شيء ، والرقيب: الحفيظ بكل شيء.

ووجه مناسبة هذا الحديث بفضائل القرآن: أنه ابتدئ بنزوله في مكان شريف، وهو البلد الحرام، كما أنه كان في زمن شريف وهو شهر رمضان، فاجتمع له شرف الزمان والمكان. ولهذا يُستحب إكثار تلاوة القرآن في شهر رمضان، لأنه ابتُدئ نزوله فيه، ولهذا كان جبريل يعارض به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل سنة في شهر رمضان، فلما كان في السنة التي توفى فيها عارضه به مرتين تأكيدا وتثبيتًا.

حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث بن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة". وفي هذا الحديث فضيلة عظيمة للقرآن المجيد على كل معجزة أُعطيها نبي من

---

[٢] **أبو الفداء عماد الدين إسماعيل** بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع القرشي المعروف بـ(**ابن كثير**)، عالم مسلم، وفقيه، ومفت، ومحدث، وحافظ، ومفسر، ومؤرخ، وعالم بالرجال، ومشارك في اللغة، وله نظم. كان والده (عمر بن كثير) خطيب مسجد جامع بمدينة (بصرى) ويعود أصله إلى (البصرة) التي نزح منها إلى الشام . ولد في سوريا سنة ٧٠٠ هـ كما ذكر أكثر من مترجم له أو بعدها بقليل كما قال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة. وكان مولده بقرية "مجدل" من أعمال بصرى من منطقة سهل حوران -درعا حاليا- في جنوب دمشق. انتقل إلى دمشق سنة ٧٠٦ هـ في الخامسة من عمره، وتفقه الشيخ إبراهيم الفزازي الشهير بابن الفركاح وسمع بدمشق من عيسى بن المطعم ومن أحمد بن أبي طالب وبالحجار ومن القاسم بن عساكر وابن الشيرازي واسحاق بن الامدى ومحمد بن زراد، ولازم الشيخ جمال يوسف بن الزكي المزي صاحب تهذيب الكمال وأطراف الكتب الستة وبه انتفع وتخرج وتزوج بابنته. قرأ على شيخ الإسلام ابن تيمية كثيرا ولازمه وأحبه وانتفع بعلومه، وعلى الشيخ الحافظ بن قايماز وأجاز له من مصر أبو موسى القرافي والحسيني وأبو الفتح الدبوسي وعلي بن عمر الواني ويوسف الختي وغير واحد. توفي إسماعيل بن كثير يوم الخميس ٢٦ شعبان ٧٧٤ هـ في دمشق عن أربع وسبعين سنة. وكان قد فقد بصره في آخر حياته، وهو يؤلف "جامع المسانيد"، فأكمله الا بعض مسند أبي هريرة، وفيه قال :" لازلت فيه في الليل و السراج ينونص حتى ذهب بصري معه". وقد ذكر ابن ناصر الدين أنه "كانت له جنازة حافلة مشهودة، ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية بمقبرة الصوفية".

الأنبياء، وعلى كل كتاب أنزله، وذلك أن معنى الحديث: ما من نبي إلا أُعطي من المعجزات ما آمن عليه البشر، أي: ما كان دليلا على تصديقه فيما جاءهم به واتبعه من اتبعه من البشر، ثم لما مات الأنبياء لم يبق لهم معجزة بعدهم إلا ما يحكيه أتباعهم عما شاهده في زمانه، فأما الرسول الخاتم للرسالة محمد صلى الله عليه وسلم فإنما كان معظم ما آتاه الله وحيا منه إليه منقولا إلى الناس بالتواتر، ففي كل حين هو كما أُنزل، فلهذا قال: "فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا"، وكذلك وقع، فإن أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء لعموم رسالته ودوامها إلى قيام الساعة، واستمرار معجزته، ولهذا قال الله:{تَبَارَكَ الَّذِي نزلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}[الفرقان: ١]، وقال تعالى:{قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال:{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[هود: ١٣] ثم تحداهم إلى أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فقال:{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[يونس: ٣٨]، وقصر التحدي على هذا المقام في السور المكية كما ذكرنا وفي المدنية أيضا كما في سورة البقرة، حيث يقول تعالى:{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نزلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}[البقرة: ٢٣، ٢٤] فأخبرهم بأنهم عاجزون عن معارضته بمثله، **وأنهم لا يفعلون ذلك في المستقبل أيضا**، وهذا وهم أفصح الخلق وأعلمهم بالبلاغة والشعر وقريض الكلام وضروبه، لكن جاءهم من الله مالا قبل لأحد من البشرية من الكلام الفصيح البليغ، الوجيز، المحتوي على العلوم الكثيرة الصحيحة النافعة، والأخبار الصادقة عن الغيوب الماضية والآتية، والأحكام العادلة والمحكمة، كما قال تعالى:{وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلا}[الأنعام: ١١٥].

ويقول الإمام أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي ثم القرطبي رضي الله عنه في كتابه "الجامع لأحكام القرآن الكريم"[٣]:

قرأة القرآن حملة سر الله المكنون، وحفظة علمه المخزون، وخلفاء أنبيائه وأمناؤه، وهم أهله وخاصته وخيرته وأصفياؤه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"إن لله أهلين منّا قالوا: يا رسول الله، مَن هم؟ قال: هم أهلُ القرآن أهلُ الله وخاصّته"، أخرجه ابن ماجه في سننه وأبو بكر البزار في مسنده. فما أحق من علم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكرّ ما شُرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه ويراقبه ويستحييه، فإنه قد حُمل أعباء الرسل وصار شهيدا في القيامة على من خالف من أهل الملل، قال الله تعالى:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}. ألا وإن الحجة على من علمه فأغفله أو كد منها على

---

[٣] **محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح** كنيته **أبو عبد الله** ولد بقرطبة بالأندلس حيث تعلم القرآن الكريم وقواعد اللغة العربية وتوسع بدراسة الفقه والقراءات والبلاغة وعلوم القرآن وغيرها كما تعلم الشعر أيضاً. انتقل إلى مصر واستقر بمنية بني خصيب في شمال أسيوط حتى وافته المنية في ٩ شوال ٦٧١ هـ، وهو يعتبر من كبار المفسرين وكان فقيهًا ومحدثًا ورعًا وزاهدًا متعبدًا.

من قصر عنه وجهله، ومن أوتي علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع، وارتكب من المآثم قبيحا ومن الجرائم فضوحا كان القرآن حجة عليه وخصما لديه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"القرآن حجة لك أو عليك"، خرّجه مسلم. **فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته، ويتدبر حقائق عبارته، ويتفهم عجائبه ويتبين غرائبه**، قال الله تعالى:{كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ}. وقال الله تعالى:{أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}. جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته، ويتدبره حق تدبره، ويقوم بقسطه، ويوفي بشرطه، ولا يلتمس الهدى في غيره، وهدانا لأعلامه الظاهرة وأحكامه القاطعة الباهرة وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة. ثم جعل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان منه مُجملا، وتفسير ما كان منه مُشكِلا، وتحقيق ما كان منه محتملا، ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ومنزلة التفويض إليه، قال الله تعالى:{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}. ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم استنباط ما نبه على معانيه وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد فيمتازوا بذلك عن غيرهم ويختصوا بثواب اجتهادهم، قال الله تعالى:{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}. فصار الكتاب أصلا، والسنة له بيانا، واستنباط العلماء له إيضاحا وتبيانا.

وبعد فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع الذي استقل به السنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغل به مدى عمري، وأستفرغ فيه منتي، بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا يتضمن نكتا[٤] من التفسير واللغات والإعراب والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعا بين معانيهما ومبينا ما أشكل منهما بأقاويل السلف ومن تبعهم من الخلف، وعملته تذكرة لنفسي وذخيرة ليوم رمسي، وعملا صالحا بعد موتي، قال الله تعالى:{يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ}. وقال تعالى:{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ}. وقال رسول الله صلى الله وسلم: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا في ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له".

وشرطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها، فإنه يقال من بركة العلم أن يُضاف القول إلى قائله. وكثيرا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث؛ فبقي من لا خبرة له بذلك حائرا لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك على جسيم فلا يقبل منه الاحتجاج به ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من خرجه من الأئمة الأعلام والثقات المشاهير من علماء الإسلام. ونحن نشير إلى جمل من ذلك في هذا الكتاب والله الموفق للصواب؛ وأضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين إلا ما لابد منه ولا غنى عنه للتبيين، واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام بمسائل تُسفر عن معناها وتُرشد للطالب إلى مقتضاها، فضمنت كل آية تتضمن حكما أو حكمين فما زاد مسائل نبين فيها ما تحتوي عليه النزول والتفسير الغريب والحكم، فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل هكذا إلى آخر الكتاب وسميته بـ "**الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان**"، جعله الله خالصا لوجهه **وأن ينفعني به ووالدي** ومن أراده بمنه إنه سميع الدعاء قريب مجيب؛ آمين.

[٤] النكتة: المسألة العلمية الدقيقة يُتوصل إليها بدقة وإنعام فكر (المعجم الوجيز)

باب ذكر جمل من فضائل القرآن والترغيب فيه، وفضل طالبه وقارئه ومستعمله والعامل به

اعلم أن هذا الباب واسع كبير ألف فيه العلماء كتبا كثيرة نذكر من ذلك نكتا تدل على فضله، وما أعد الله لأهله إذا أخلصوا الطلب لوجهه وعملوا به. **فأول ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين غير مخلوق، كلام من ليس كمثله شيء، وصفة من ليس له شبيه ولا ند فهو من نور ذاته جل وعز؛ وأن القراءة أصوات القراء ونغماتهم.** وأما ما جاء من الآثار في هذا الباب فأول ذلك ما خرجه الترمذي عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقول الرب تبارك وتعالى من شغله القرآن وذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين. قال: وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه"، قال هذا حديث حسن غريب. وأُسند عن الحارث عن علي رضي الله عنه وخرجه الترمذي، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ستكون فتن كقطع الليل المظلم. قلت يا رسول الله وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم" خذها إليك يا أعور. الحارث رماه الشعبي بالكذب وليس بشيء، ولم يبن من الحارث كذب وإنما نقم عليه إفراطه في حب علي وتفضيله له على غيره ومن ها هنا والله أعلم كذبه الشعبي، لأن الشعبي يذهب إلى تفضيل أبي بكر وإلى أنه أول من أسلم.

وأسند أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنباري النحوي اللغوي في كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا حبل الله، وهو النور المبين والشفاء النافع، عصمة من تمسك به ونجاة من اتبعه، لا يعوج فيقوَّم، ولا يزيغ فيُستعتب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشرة حسنات، أما إني لا أقول آلم حرف، ولا ألفَين أحدكم واضعا إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة فإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة، وإن أصفر البيوت من الخير البيت الصفر من كتاب الله"، وقال أبو عبيدة في غريبه عن عبد الله قال إن هذا القرآن مأدبة الله فمن دخل فيه فهو آمن، قال: وتأويل الحديث أنه مثل شبه القرآن بصنيع صنعه الله عز وجل للناس لهم فيه خير ومنافع ثم دعاهم إليه يقال مأدبة ومأدُبة، فمن قال مأدُبة أراد الصنيع يصنعه الإنسان فيدعو إليه الناس ومن قال مأدبة فإنه يذهب به إلى الأدب يجعله مفعلة من الأدب، ويحتج بحديثه الآخر: "إن هذا القرآن مأدبة الله عز وجل فتعلموا من مأدبته". وكان الأحمر يجعلهما لغتين بمعنى واحد ولم أسمع أحد يقول هذا غيره. قال: والتفسير الأول أعجب إليّ.

وذكر أبو بكر الأنباري: وقد أخبرنا أحمد بن يحيى الحلواني، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا هشيم ح، وأنبأنا إدريس، حدثنا خلف، حدثنا هشيم عن العوام بن حوشب أن أبا عبد الرحمن السُّلَميّ كان إذا ختم عليه الخاتِمُ القرآن أجلسه بين يديه ووضع يده على رأسه وقال له: "يا هذا اتق الله فما أعرف أحدا خيرا منك إن عملت بالذي علمت". وروى مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران". التتعتع التردد في الكلام عيا وصعوبة، وإنما كان له أجران من حيث التلاوة ومن حيث المشقة، ودرجات الماهر فوق ذلك كله لأنه قد كان القرآن متعتعا عليه ثم ترقى عن ذلك إلى أن شُبه بالملائكة، والله أعلم. وروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف". قال حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد رُوي موقوفا. وروى مسلم عن عقبة بن عامر قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في الصُفة، فقال: "أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطع رحم؟ فقلنا يا رسول الله كلنا نحب ذلك. قال: أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع ومن أعدادهن من الإبل". وقال ابن عباس: من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول:{فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى}. قال ابن عباس: فضمن الله لمن اتبع القرآن ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ذكره مكي أيضا. وقال الليث: يُقال ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن لقول الله جل ذكره:{وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}. و{لَعَلّ} من الله واجبة.

جمع القرآن

يقول الإمام ابن كثير:

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن عبيد بن السباق، أن زيد بن ثابت قال: أرسل إليّ أبو بكر –مقتل أهل اليمامة– فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر: إن عمر بن الخطاب أتاني، فقال: إن القتل قد استَحَرَّ بقُرَّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. فقلت لعمر: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما. فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخَاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره:{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ}[التوبة: ١٢٨] حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه

الله ، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر، رضي الله عنهم. وقد روى البخاري هذا [الحديث] في غير موضع من كتابه، ورواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي من طرق عن الزهري به.

وهذا من أحسن وأجل وأعظم ما فعله الصديق، رضي الله عنه، فإنه أقامه الله بعد النبي صلى الله عليه وسلم مقاما لا ينبغي لأحد بعده، قاتل الأعداء من مانعي الزكاة، والمرتدين، والفرس والروم، ونفذ الجيوش، وبعث البعوث والسرايا، ورد الأمر إلى نصابه بعد الخوف من تفرقه وذهابه، وجمع القرآن العظيم من أماكنه المتفرقة حتى تمكن القارئ من حفظه كله، وكان هذا من سر قوله تعالى:{إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[الحجر: ٩] فجمع الصديق الخير وكف الشرور، رضي الله عنه وأرضاه. ولهذا روى غير واحد من الأئمة منهم وَكِيع وابن زيد وقبيصة عن سفيان الثوري عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير[٥] عن عبد خير ، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه قال: أعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكر، إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين. إسناده صحيح. ولهذا قال زيد بن ثابت: وجدت آخر سورة التوبة، يعني قوله تعالى:{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} إلى آخر الآيتين [التوبة: ١٢٨ ، ١٢٩] ، مع أبي خزيمة الأنصاري، وفي رواية: مع خزيمة بن ثابت الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادتين، لم أجدها مع غيره فكتبوها عنه لأنه جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادتين في قصة الفرس التي ابتاعها رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأعرابي، فأنكر الأعرابي البيع، فشهد خزيمة هذا بتصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمضى شهادته وقبض الفرس من الأعرابي. والحديث رواه أهل السنن وهو مشهور، وروى أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية أن أبيّ بن كعب أملاها عليهم مع خزيمة بن ثابت. وأما قول زيد [بن ثابت] "فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال"، وفي رواية: "من العسب والرِّقَاع والأضلاع، وفي رواية: "من الأكتاف والأقتاب وصدور الرجال". أما العُسُب فجمع عسيب. قال أبو النصر إسماعيل بن حماد الجوهري: وهو من السعف فويق الكَرَب لم ينبت عليه الخوص، وما نبت عليه الخوص فهو السعف. واللِّخاف: جمع لَخَفَة وهي القطعة من الحجارة مستدقة، كانوا يكتبون عليها وعلى العسب وغير ذلك، مما يمكنهم الكتابة عليه مما يناسب ما يسمعونه من القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومنهم من لم يكن يحسن الكتابة أو يثق بحفظه، فكان يحفظه، فتلقاه زيد بن ثابت من هذا من عسيبه، ومن هذا من لخافه، ومن صدر هذا، أي من حفظه، وكانوا أحرص شيء على أداء الأمانات وهذا من أعظم الأمانة. لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أودعهم ذلك ليبلغوه إلى من بعده كما قال [الله] تعالى:{يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ}[المائدة: ٦٧]، ففعل، صلوات الله وسلامه عليه، ما أُمر به؛ ولهذا سألهم في حجة الوداع يوم عرفة على رؤوس الأشهاد، والصحابة أوفر ما كانوا مجتمعين، فقال:"إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟". فقالوا: نشهد أنك قد بَلَّغت وأدَّيت ونصحت، فجعل يشير بأصبعه إلى السماء، وينكبها عليهم ويقول: "اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد". رواه مسلم عن جابر. وقد أمر أمته أن يبلغ الشاهد الغائب، وقال:

---

[٥] **إسماعيل بن عبد الرحمن السدي** إسمه إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي ، أبو محمد القرشي الكوفي الأعور مولى زينب بنت قيس بن مخرمة وقيل مولى بني هاشم كنيته أبو محمد وقيل:السدي القرشي الكوفي الأعور. يعتبر إسماعيل بن عبد الرحمن السدي من الطبقة الرابعة من طبقات رواة الحديث النبوي التي تضم طبقة تلي الوسطى التابعين ورتبته عند أهل الحديث وعلماء الجرح والتعديل وفي كتب علم التراجم يعتبر **صدوق يهم ورمي بالتشيع**، وعند الإمام شمس الدين الذهبي حسن الحديث، قال أبو حاتم: لا يحتج به. وتوفي في عام ١٢٧ هـ .

"بَلِّغوا عني ولو آية"، يعني: ولو لم يكن مع أحدكم سوى آية واحدة فليؤدها إلى من وراءه، فبلَّغوا عنه ما أمرهم به، فأدوا القرآن قرآنا، والسنة سنة، لم يلبسوا هذا بهذا. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: "من كتب عني سوى القرآن فليمحه"، أي: لئلا يختلط بالقرآن، وليس معناه ألا يحفظوا السنة ويروووها، والله أعلم.

فلهذا نعلم بالضرورة أنه لم يبق من القرآن مما أداه الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم إلا وقد بلغوه إلينا، ولله الحمد والمنة، فكان الذي فعله الشيخان أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، من أكبر المصالح الدينية وأعظمها، من حفظهما كتاب الله في الصحف لئلا يذهب منه شيء بموت من تلقاه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم كانت تلك الصحف عند الصديق أيام حياته، ثم أخذها عمر بعده محروسة معظمة مكرمة، فلما مات كانت عند حفصة أم المؤمنين، رضي الله عنها، حتى أخذها منها أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

قال البخاري، رحمه الله: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم، حدثنا ابن شهاب، عن أنس بن مالك، حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان بن عفان رضي الله عنهما وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة. فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما أنزل بلسانهم، ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في محل صحيفة أو مصحف أن يحرق. قال ابن شهاب الزهري: فأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت: سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها، التمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} [الأحزاب: ٢٣]، فألحقناها في سورتها في المصحف. وهذا- أيضا- من أكبر مناقب أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فإن الشيخين سبقاه إلى حفظ القرآن أن يذهب منه شيء وهو جمع الناس على قراءة واحدة لئلا يختلفوا في القرآن، ووافقه على ذلك جميع الصحابة، وإنما روي عن عبد الله بن مسعود شيء من التغضب بسبب أنه لم يكن ممن كتب المصاحف وأمر أصحابه بغل مصاحفهم لما أمر عثمان بحرقه ماعدا المصحف الإمام، ثم رجع ابن مسعود إلى الوفاق حتى قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: لو لم يفعل ذلك عثمان لفعلته أنا. فاتفق الأئمة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم، على أن ذلك من مصالح الدين.

وكان عثمان- والله أعلم- رتب السور في المصحف، وقدم السبع الطوال وثنى بالمئين؛ ولهذا روى ابن جرير وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث غير واحد من الأئمة الكبار، عن عوف الأعرابي، عن يزيد الفارسي، عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينها ولم تكتبوا بينها سطر "بسم الله الرحمن الرحيم"، ووضعتموها في السبع الطوال؟ ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، فإذا أنزلت عليه الآية فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر

فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وحسبت أنها منها وقُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر "بسم الله الرحمن الرحيم" فوضعتها في السبع الطوال.

ففهم من هذا الحديث أن **ترتيب الآيات والسور أمر توقيفي متلقى عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وأما ترتيب السور فمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه**؛ ولهذا ليس لأحد أن يقرأ القرآن إلا مرتبا؛ فإن نكسه أخطأ خطأ كبيرا. وأما ترتيب السور فمستحب اقتداء بعثمان ، رضي الله عنه. والأولى إذا قُرأ أن يقرأ متواليا كما قرأ ، عليه الصلاة والسلام، في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين وتارة بسبح وهل أتاك حديث الغاشية، فإن فرق جاز، كما صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في العيد بقاف واقتربت الساعة، رواه مسلم عن أبي واقد في الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة: الم السجدة، وهل أتى على الإنسان. وإن قدم بعض السور على بعض جاز أيضا، فقد روى حذيفة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ البقرة ثم النساء ثم آل عمران. أخرجه مسلم.

ثم إن عثمان رد الصحف إلى حفصة، فلم تزل عندها حتى أرسل إليها مروان بن الحكم يطلبها فلم تعطه حتى ماتت، فأخذها من عبد الله بن عمر فحرقها لئلا يكون فيها شيء يخالف المصاحف التي نفذها عثمان إلى الآفاق، مصحفا إلى أهل مكة، ومصحفا إلى البصرة، وآخر إلى الكوفة، وآخر إلى الشام، وآخر إلى اليمن، وآخر إلى البحرين، وترك عند أهل المدينة مصحفا، رواه أبو بكر بن أبي داود عن أبي حاتم السجستاني، سمعه يقوله. وصحح القرطبي أنه إنما نفذ إلى الآفاق أربعة مصاحف، وهذا غريب، وأمر بما عدا ذلك من مصاحف الناس أن يحرق لئلا تختلف قراءات الناس في الآفاق، وقد وافقه الصحابة في عصره على ذلك ولم ينكره أحد منهم، وإنما نقم عليه ذلك أولئك الرهط الذين تمالؤوا عليه وقتلوه، قاتلهم الله، وفي ذلك جملة ما أنكروه مما لا أصل له، وأما سادات المسلمين من الصحابة، ومن نشأ في عصرهم ذلك من التابعين، فكلهم وافقوه.

حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا محمد بن عبد الله، حدثني عمران بن حدير، عن أبي مِجْلَز قال: لولا أن عثمان كتب القرآن لألفيت الناس يقرؤون الشعر. حدثنا أحمد بن سنان قال: سمعت ابن مهدي يقول: خصلتان لعثمان بن عفان ليستا لأبي بكر ولا لعمر: صبره نفسه حتى قُتل مظلومًا، وجمعه الناس على المصحف. وأما عبد الله بن مسعود فقد قال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن حميد بن مالك قال: لما أمر عثمان بالمصاحف- يعني بتحريقها- ساء ذلك عبد الله بن مسعود وقال: من استطاع منكم أن يغلَّ مصحفًا فليغلل، فإنه من غلَّ شيئًا جاء بما غل يوم القيامة. ثم قال عبد الله: لقد قرأت القرآن من فِي رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة وزيد صبي، أفأترك ما أخذت من فِي رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال أبو بكر: حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا ابن شهاب، عن الأعمش، عن أبي وائل، قال: خطبنا ابن مسعود على المنبر فقال:{وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}[آل عمران: ١٦١]، غلوا مصاحفكم، وكيف تأمروني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت وقد قرأت القرآن من فِي رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة، وإن زيد بن ثابت ليأتي مع الغلمان له ذؤابتان، والله ما نزل من القرآن شيء إلا وأنا أعلم في أي شيء نزل، وما أحد أعلم بكتاب الله مني، وما أنا بخيركم، ولو أعلم مكانا تبلغه الإبل أعلم بكتاب الله مني لأتيته. قال أبو

وائل: فلما نزل عن المنبر جلست في الحلق، فما أحد ينكر ما قال. أصل هذا مخرج في الصحيحين وعندهما: ولقد علم أصحاب محمد أني أعلمهم بكتاب الله. وقول أبي وائل: "فما أحد ينكر ما قال"، يعني: من فضله وعلمه وحفظه، والله أعلم. وأما أمره بغَلّ المصاحف وكتمانها، فقد أنكره عليه غير واحد. وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا عمي، حدثنا أبو رجاء، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن مصعب بن سعد قال: قام عثمان فخطب الناس فقال: [يا] أيها الناس عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمترون في القرآن، وتقولون: قراءة أبي وقراءة عبد الله، يقول الرجل: والله ما تقيم قراءتك، وأعزم على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله لما جاء به. فكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلا رجلا فناشدهم: لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أمله عليك فيقول: نعم. فلما فرغ من ذلك عثمان قال: من أكتَبُ الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت. قال : فأي الناس أعرب؟ قالوا: سعيد بن العاص. قال عثمان: فليمْل سعيد ، وليكتب زيد. فكتب زيد مصاحف ففرقها في الناس، فسمعت بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون قد أحسن. إسناده صحيح. وقال أيضا: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا أبو بكر، حدثنا هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن كثير بن أفلح قال: لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلا من قريش والأنصار، فيهم أبيّ بن كعب وزيد بن ثابت، قال: فبعثوا إلى الربعة التي في بيت عمر فجيء بها، قال: وكان عثمان يتعاهدهم، وكانوا إذا تدارؤوا في شيء أخره. قال محمد: فقلت لكثير- وكان فيهم فيمن يكتب-: هل تدرون لم كانوا يؤخرونه؟ قال: لا. قال محمد: فظننت ظنا إنما كانوا يؤخرونها لينظروا أحدثهم عهدا بالعرضة الأخيرة فيكتبونها على قوله. صحيح أيضا.

قلت: الربعة هي الكتب المجتمعة، وكانت عند حفصة، رضي الله عنها، فلما جمعها عثمان، رضي الله عنه، في المصحف، ردها إليها، ولم يحرقها في جملة ما حرقه مما سواها، إلا أنها هي بعينها الذي كتبه، وإنما رتبه، ثم إنه كان قد عاهدها على أن يردها إليها، فما زالت عندها حتى ماتت، ثم أخذها مروان بن الحكم فحرقها وتأول في ذلك ما تأول عثمان، كما رواه أبو بكر بن أبي داود: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، أخبرني سالم بن عبد الله: أن مروان كان يرسل إلى حفصة يسألها الصحف التي كُتب منها القرآن، فتأبى حفصة أن تعطيه إياها. قال سالم: فلما توفيت حفصة ورجعنا من دفنها أرسل مروان بالعزيمة إلى عبد الله بن عمر ليرسلن إليه بتلك الصحف، فأرسل بها إليه عبد الله بن عمر فأمر بها مروان فشققت، وقال مروان: إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كُتب وحُفظ بالمصحف، فخشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب، أو يقول: إنه كان شيء منها لم يكتب. إسناد صحيح.

وأما ما رواه الزهري عن خارجة عن أبيه في شأن آية الأحزاب وإلحاقهم إياها في سورتها، فذكره لهذا بعد جمع عثمان فيه نظر، وإنما هذا كان حال جمع الصديق الصحف كما جاء مصرحًا به في غير هذه الرواية عن الزهري، عن عبيد بن السباق، عن زيد بن ثابت، والدليل على ذلك أنه قال: "فألحقناها في سورتها من المصحف" وليست هذه الآية ملحقة في الحاشية في المصاحف العثمانية. فهذه الأفعال من أكبر القربات التي بادر إليها الأئمة الراشدون أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، حفظا على الناس القرآن، جمعاه لئلا يذهب منه شيء، وعثمان، رضي الله عنه، جمع قراءات الناس على مصحف واحد ووضعه على العرضة الأخيرة التي عارض بها جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر رمضان من عمره، عليه

الصلاة والسلام، فإنه عارضه به عامئذ مرتين. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة ابنته لما مرض: "وما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي". أخرجاه في الصحيحين. وقد رُوي أن عليًا، رضي الله عنه، أراد أن يجمع القرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتبا بحسب نزوله أولا فأولا كما رواه ابن أبي داود حيث قال: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا ابن فضيل، عن أشعث، عن محمد بن سيرين قال: لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم أقسم علي ألا يرتدي برداء إلا لجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف ففعل، فأرسل إليه أبو بكر، رضي الله عنه بعد أيام: أكرهت إمارتي يا أبا الحسن؟ فقال: لا والله إلا أني أقسمت ألا أرتدي برداء إلا لجمعة. فبايعه ثم رجع. هكذا رواه وفيه انقطاع، ثم قال: لم يذكر المصحف أحد إلا أشعث وهو لين الحديث وإنما رووا حتى أجمع القرآن، يعني أُتم حفظه، فإنه يقال للذي يحفظ القرآن: قد جمع القرآن. قلت: وهذا الذي قاله أبو بكر أظهر، والله أعلم، فإن عليا لم ينقل عنه مصحف على ما قيل ولا غير ذلك، ولكن قد توجد مصاحف على الوضع العثماني يقال إنها بخط علي، رضي الله عنه، وفي ذلك نظر، فإنه في بعضها: كتبه علي بن أبي طالب، وهذا لحن من الكلام، وعلي، فأما عثمان، رضي الله عنه، فما يعرف أنه كتب بخطه هذه المصاحف، وإنما كتبها زيد بن ثابت في أيامه، ربما وغيره، فنُسبت إلى عثمان لأنها بأمره وإشارته، ثم قرئت على الصحابة بين يدي عثمان، رضي الله عنه، ثم نُفذت إلى الآفاق. وقد قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا علي بن حرب الطائي، حدثنا قريش بن أنس، حدثنا سليمان التيمي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد مولى بني أسيد، قال: **لما دخل المصريون على عثمان ضربوه بالسيف على يده** فوقعت على: {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[البقرة:١٣٧]، فمد يده فوقعت، والله إنها لأول يد خطت المُفَصَّل. وقال أيضا: حدثنا أبو طاهر، حدثنا ابن وهب قال: سألت مالكا عن مصحف عثمان، فقال لي: ذَهَب. يحتمل أنه سأله عن المصحف الذي كتبه بيده، ويحتمل أن يكون سأله عن المصحف الذي تركه في المدينة، والله أعلم. قلت: **وقد كانت الكتابة في العرب قليلة جدًا**، وإنما أول ما تعلموا ذلك ما ذكره هشام بن محمد بن السائب الكلبي وغيره أن بشر بن عبد الملك أكيدر دومة تعلم الخط من الأنبار، ثم قدم مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية فعلمه حرب بن أمية وابنه سفيان، وتعلمه عمر بن الخطاب من حرب بن أمية، وتعلمه معاوية من عمه سفيان بن حرب، وقيل: إن أول من تعلمه من الأنبار قوم من طيئ من قرية هناك يقال لها بقة، ثم هذبوه ونشروه في جزيرة العرب فتعلمه الناس. ولهذا قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا عبد الله بن محمد الزهري، حدثنا سفيان عن مجاهد عن الشعبي قال: سألنا المهاجرين من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الحيرة. وسألنا أهل الحيرة: من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الأنبار. قلت: والذي كان يغلب على زمان السلف الكتابة المكتوفة ثم هذبها أبو علي مقلة الوزير، وصار له في ذلك منهج وأسلوب في الكتابة، ثم قربها علي بن هلال البغدادي المعروف بابن البواب وسلك الناس وراءه. وطريقته في ذلك واضحة جيدة. **والغرض أن الكتابة لما كانت في ذلك الزمان لم تُحكم جيدا، وقع في كتابة المصاحف اختلاف في وضع الكلمات من حيث صناعة الكتابة لا من حيث المعنى**[٦].

---

[٦] يقول الأستاذ أحمد أمين في كتابه "فجر الإسلام":

الأمية : تركنا العرب في الجاهلية، وليس لهم علم ولا فلسفة، ولم يكن من بينهم من يصح أن يُسمى عالما إلا قليل، وعلى تجوز في إطلاق كلمة عالم، كالذي حكينا عن الحارث بن كَلَدَة والنَّضْرِ بن الحارث. وقد كان الجهل فاشيًا فيهم، والأميَّة شائعة بينهم، خصوصًا في الأقطار البدوية، لما قدمنا من أن الكتابة والعلم إنما يكثران حيث يكثر العمران. ويقول ابن خلدون إن أهل الحجاز تعلموا

وقال البخاري: حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، قال: أخبرني أنس بن مالك أن الله تابع الوحي على رسوله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته حتى توفاه أكثر ما كان الوحي، ثم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد. وهكذا رواه مسلم عن عمرو بن محمد هذا – وهو الناقد– وحسن الحلواني وعبد بن حميد والنسائي عن إسحاق ابن منصور الكوسج، أربعتهم عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهري به. ومعناه: أن الله تعالى تابع نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا بعد شيء كل وقت بما يحتاج إليه، ولم تقع فترة بعد الفترة الأولى التي كانت بعد نزول الملك أول مرة بقوله:{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ}[العلق: ١]، فإنه استلبث الوحي بعدها حينا يقال قريبا من سنتين أو أكثر، ثم حمي الوحي وتتابع، وكان أول شيء نزل بعد تلك الفترة:{يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ}[المدثر : ١ ، ٢].

وحدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان عن الأسود بن قيس، قال: سمعت جندبا يقول: اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا تركك، فأنزل الله تعالى:{وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}[الضحى: ١ – ٣]. وقد رواه البخاري في غير موضع أيضا، ومسلم والترمذي والنسائي من طرق أخر عن سفيان – وهو الثوري– وشعبة بن الحجاج كلاهما عن الأسود بن قيس العبدي، عن جندب

الكتابة من أهل الحيرة، وهؤلاء تعلموا من الحميريين. وسواء صح هذا أو لم يصح، فالحجازيون والمضريون عمومًا كانوا أشد بداوة وأكثر أمية، حتى يروي لنا البلاذُري في كتابه "فتوح البلدان" أن الإسلام دخل وفي قريش سبعة عشر رجلًا كلهم يكتب: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجَرَّاح، وطلحة، ويزيد بن أبي سفيان، وأبو حُذَيْفة بن عُتْبة بن ربيعة، وحاطب بن عمرو، وأبو سلَمة بن عبد الأسد المخزومي، وأَبَان بن سعيد بن العاص بن أمية، وخالد بن سعيد أخوه، وعبد الله بن سعيد بن أبي سَرْحٍ العامري، وحُوَيْطِب بن عبد العُزَّى العامري، وأبو سفيان بن حرب، ومعاوية بن أبي سفيان، وجُهَيْم بن الصَّلْت، ومن حلفاء قريش العلاء بن الْحَضْرَمي. وقليل من نسائهم كنَّ يكتبن، كحفصة وأم كلثوم[٦] من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، والشِّفاء بنت عبد الله العدَوية، وكانت عائشة أم المؤمنين تقرأ المصحف ولا تكتب وكذلك أم سلَمة. فإذا كانت قريش، وشأنها في الحجاز ما بينا قبلُ من تقدمها في الشئون التجارية، ليس فيها إلا سبعة عشر كاتبًا، كان الكاتبون في غيرها من القبائل المضرِّية أندر. ويروي البلاذري أيضًا أن الكِتاب، يريد الكتابة، بالعربية، في الأوْس والخزرج كان قليلًا، وكان بعض اليهود قد علم كِتَاب العربية وكان يعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول، فجاء الإسلام وفي الأوْس والخزرج عدة يكتبون، وقد عدهم فكانوا أحد عشر، وكانوا، لندرة الكتابة، يُلقَّبون مَنْ جمع بين معرفة الكتابة والرمي والعوم "الكامل"، فلقبوا بهذا اللقب سعد بن عُبادة، وأسَيْد بن حضَيْر وعبد الله بن أُبَيّ. فلما جاء الإسلام استكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض هؤلاء الذين يعرفون الكتابة لكتابة ما ينزل من القرآن، فكان أول مَن كتب له مَقْدَمَه المدينة أُبَيُّ بن كعب الأنصاري، فكان أُبَيّ إذا لم يحضر دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت الأنصاري، فكتب له؛ فكان أُبَيّ وزيد يكتبان الوحي بين يديه وكُتُبه إلى من يكاتب من الناس ومن يقْطع وغير ذلك. وأول من كتب له من قريش عبد الله بن سعد بن أبي سرح ثم ارتد ... إلخ، ثم كتب له صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان، وشُرَحْبِيلُ بن حَسَنَة، وأبَان بن سعيد، وخالد بن سعيد، والعلاء بن الحضرمي، ومعاوية بن أبي سفيان. ويروي الواقدي أن حنظلة بن الربيع كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة فسُمي حنظلة الكاتب. وحتى هؤلاء الذين كانوا يكتبون الوحي لم يكونوا مهرة في الكتابة، ولا كتابتهم سائرة على نمط واحد، ولا خاضعة لقوانين الإملاء، فكتبوا "لا أذبحَنَّه" بزيادة ألف، وكذلك "لا أوضعوا"، وكتبوا "بأييد" بياءَين، وكتبوا "امرأت فرعون" و "قرتُ عين لي ولك" بتاء مفتوحة، وحذفوا الألفات من مواضع دون مواضع مع تساويها في نظر الإملاء. وسبب ذلك،كما يعلله ابن خلدون، ضعفهم في صناعة الخط، وأنهم لم يبلغوا حدَّ الإجادة فيها.

بن عبد الله البجلي. والمناسبة في ذكر هذا الحديث والذي قبله في فضائل القرآن: أن الله تعالى له برسوله عناية عظيمة ومحبة شديدة، حيث جعل الوحي متتابعا عليه ولم يقطعه عنه. **ولهذا إنما أنزل عليه القرآن مفرقا ليكون ذلك في أبلغ العناية والإكرام**. قال البخاري رحمه الله: نزل القرآن بلسان قريش والعرب، قرآنا عربيا بلسان عربي مبين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب عن الزهري: أخبرني أنس بن مالك، قال: فأمر عثمان بن عفان زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف. وقال لهم: إذا اختلفتم أنتم وزيد في عربية من عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن نزل بلسانهم، ففعلوا.

هذا الحديث قطعة من حديث سيأتي قريبا والكلام عليه ومقصود البخاري منه ظاهر، وهو أن القرآن نزل بلغة قريش، وقريش خلاصة العرب؛ ولهذا قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا عبد الله بن محمد بن خلاد، حدثنا يزيد، حدثنا شيبان، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: لا يملى في مصاحفنا هذه إلا غلمان قريش أو غلمان ثقيف. وهذا إسناد صحيح. وقال أيضا: حدثنا إسماعيل بن أسد، حدثنا هوذة، حدثنا عوف، عن عبد الله بن فضالة، قال: لما أراد عمر أن يكتب الإمام أقعد له نفرا من أصحابه وقال: إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مضر، فإن القرآن نزل بلغة رجل من مضر صلى الله عليه وسلم. وقد قال الله تعالى:{قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[الزمر: ٢٨]، وقال تعالى:{وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نزلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}[الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥]، وقال تعالى:{وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}[النحل: ١٠٣]، وقال تعالى:{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ}، الآية [فصلت: ٤٤] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

ويقول الإمام القرطبي:

باب ذكر جمع القرآن وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقه ما سواها وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضي الله عنهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم

كان القرآن في مدة النبي صلى الله عليه وسلم متفرقا في صدور الرجال، وقد كتب الناس منه في صحف وفي جريد وفي لخاف وظرر وفي خزف وغير ذلك، قال الأصمعي: اللخاف حجارة بيض رقاق واحدتها لخفة والظرر حجر له حد كحد السكين والجمع ظرار، مثل رطب ورطاب وربع ورباع وظران أيضا مثل صرد وصردان، فلما استحر القتل بالقراء يوم اليمامة في زمن الصديق رضي الله عنه، وقتل منهم في ذلك اليوم فيما قيل سبعمائة، أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القراء كأبي وابن مسعود وزيد، فندبا زيد بن ثابت إلى ذلك فجمعه غير مرتب السور بعد تعب شديد رضي الله عنه. روى البخاري عن زيد بن ثابت قال: أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل استحر يوم اليمامة بالناس وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن. قال أبو بكر: فقلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: هو والله خير. فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لذلك صدري ورأيت الذي رأى عمر. قال زيد: وعنده عمر جالس لا يتكلم، فقال لي أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي

لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فأجمعه. فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال أبو بكر: هو والله خير. فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع غيره {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ}، إلى آخرها. فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن ثم أبي بكر حتى توفاه الله ثم عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر. وقال الليث: حدثني عبدالرحمن بن غالب عن ابن شهاب وقال مع أبي خزيمة الأنصاري وقال أبو ثابت: حدثنا إبراهيم وقال مع خزيمة أو أبي خزيمة:{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}.

وفي البخاري عن زيد بن ثابت قال: لما نسخنا الصحف في المصاحف فقدت آية من سورة (الأحزاب) كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري،الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين،{رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ}. وقال الترمذي عنه: فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ} فالتمستها فوجدتها عند خزيمة بن ثابت أو أبي خزيمة فألحقتها في سورتها. قلت: فسقطت الآية الأولى من آخر (براءة) في الجمع الأول على ما قاله البخاري والترمذي؛ وفي الجمع الثاني فقدت آية من سورة الأحزاب. وحكى الطبري: أن آية براءة سقطت في الجمع الأخير، والأول أصح والله أعلم. فإن قيل: فما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه وقد سبقه أبو بكر إلى ذلك وفرغ منه؟ قيل له: إن عثمان رضي الله عنه لم يقصد بما صنع جمع الناس على تأليف المصحف، ألا ترى كيف أرسل إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك؟ وإنما فعل ذلك عثمان لأن الناس اختلفوا في القراءات بسبب تفرق الصحابة في البلدان، واشتد الأمر في ذلك وعظم اختلافهم وتشبثهم ووقع بين أهل الشام والعراق ماذكره حذيفة رضي الله عنه. وذلك أنهم اجتمعوا في غزوة أرمينية كل طائفة بما روي لها فاختلفوا وتنازعوا وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا، فأشفق حذيفة مما رأى منهم فلما قدم حذيفة المدينة –فيما ذكر البخاري والترمذي– دخل إلى عثمان قبل أن يدخل إلى بيته فقال: أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك. قال: فيما إذا؟ قال: في كتاب الله، إني حضرت هذه الغزوة، وجمعت ناسا من العراق والشام والحجاز، فوصف له ما تقدم، وقال: إني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى. قلت: وهذا أدل دليل على بطلان من قال: إن المراد بالأحرف السبعة قراءات القراء السبعة لأن الحق لا يُختلف فيه، وقد روى سويد بن غفلة عن علي بن أبي طالب أن عثمان قال: ما ترون في المصاحف فإن الناس قد اختلفوا في القراءة، حتى إن الرجل ليقول قراءتي خير من قراءتك وقراءتي أفضل من قرائتك، وهذا شبيه بالكفر، قلنا: ما الرأي عندك يا أمير المؤمنين؟ قال: الرأي عندي أن يجتمع الناس على قراءة، فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافا. قلنا: الرأي رأيك يا أمير المؤمنين. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها إليه، فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاصي وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فأكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

وكان هذا من عثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجلة أهل الإسلام وشاورهم في ذلك فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت في القراءات المشهورة عن النبي صلى الله عليه وسلم واطراح ما سواها، واستصوبوا رأيه وكان رأيا سديدا موفقا رحمة الله عليه وعليهم أجمعين. وقال الطبري فيما روي أن عثمان قرن بزيد أبان بن سعيد بن العاص وحده وهذا ضعيف، وما ذكره البخاري والترمذي وغيرهما أصح. وقال الطبري أيضا: إن الصحف التي كانت عند حفصة جُعلت إماما في هذا الجمع الأخير وهذا صحيح. وقال ابن شهاب: وأخبرني عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف، وقال: يا معشر المسلمين أعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل، والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر! يريد زيد بن ثابت. ولذلك قال عبد الله ابن مسعود: يا أهل العراق اكتموا المصاحف التي عندكم وغلوها فإن الله عز وجل يقول:{وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} فالقوا الله بالمصاحف، خرجه الترمذي. قال أبو بكر الأنباري: ولم يكن الاختيار لزيد من جهة أبي بكر وعمر وعثمان على عبد الله بن مسعود في جمع القرآن وعبد الله أفضل من زيد وأقدم في الإسلام وأكثر سوابق وأعظم فضائل إلا لأن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله إذ وعاه كله ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي، والذي حفظ منه عبد الله في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم نيف وسبعون سورة، ثم تعلم الباقي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فالذي ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي أولى بجمع المصحف وأحق بالإيثار ولاختيار، ولا ينبغي أن يظن جاهل أن في هذا طعنا على عبد الله بن مسعود، لأن زيدا إذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجبا لتقدمه عليه، لأن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن وليس هو خيرا منهما ولا مساويا لهما في الفضائل والمناقب. قال أبو بكر: وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك فشيء نتجه الغضب ولا يعمل به ولا يؤخذ به ولا يشك في أنه رضي الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقي على موافقتهم وترك الخلاف لهم. فالشائع الذائع المتعالم عند أهل الرواية والنقل أن عبد الله بن مسعود تعلم بقية القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد قال بعض الأئمة: مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن. قال يزيد بن هارون: المعوذتان بمنزلة البقرة وآل عمران ومن زعم أنهما ليستا من القرآن فهو كافر بالله العظيم. فقيل له: فقول عبد الله بن مسعود فيهما؟ فقال لا خلاف بين المسلمين في أن عبد الله بن مسعود مات وهو لا يحفظ القرآن كله. وروى إسماعيل بن إسحاق وغيره قال حماد: أظنه عن أنس بن مالك، قال: كانوا يختلفون في الآية فيقولون أقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلان بن فلان فعسى أن يكون من المدينة على ثلاث ليال فيرسل إليه فيجاء به فيقال كيف أقرأك رسول الله صلى الله عليه وسلم آية كذا وكذا فيكتبون كما يقال. قال ابن شهاب: واختلفوا يومئذ في التابوت، فقال زيد: التابوه، وقال ابن الزبير وسعيد بن العاص التابوت، فرُفع اعترافهم إلى عثمان فقال اكتبوه بالتاء فإنه نزل بلسان قريش، أخرجه البخاري والترمذي. قال ابن عطية: قرأه زيد بالهاء والقرشيون بالتاء فأثبتوا بالتاء، وكتبت المصاحف على ما هو عليه غابر الدهر، ونسخ منها عثمان نسخا، قال غيره: قيل سبعة وقيل أربعة وهو الأكثر، ووجه بها إلى الآفاق فوجه للعراق والشام ومصر بأمهات فاتخذها قراء الأمصار معتد اختياراتهم ولم يخالف أحد منهم مصحفه على النحو الذي بلغه. قال ابن عطية: ثم إن عثمان أمر بما سواها من المصاحف أن تحرق أو تخرق تروى منقوطة وتروى بالخاء على معنى ثم تدفن ورواية منقوطة أحسن. وذكر أبو بكر الأنباري في كتاب الرد عن سويد بن غفلة قال: سمعت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: يا معشر الناس اتقوا الله وإياكم والغلو في عثمان، وقولكم حراق المصاحف فوالله ما حرقها

إلا عن ملأ منا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم. وعن عمير بن سعيد قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان. قال أبو الحسن بن بطال: وفي أمر عثمان بتحريق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التي فيها أسماء الله تعالى وأن ذلك إكرام لها وصيانة عن الوطء بالأقدام وطرحها في ضياع من الأرض.

تأليف القرآن

يقول الإمام ابن كثير:

حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال: وأخبرني يوسف ابن ماهك، قال: إني لعند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، إذ جاءها عراقي فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك! وما يضرك، قال: يا أم المؤمنين، أريني مصحفك، قالت: لم؟ قال: لعلي أؤلف القرآن عليه، فإنه يُقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أيه قرأت قبل، إنما أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء: ولا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدا، لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم وإني لجارية ألعب: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} [القمر: ٤٦]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده، قال: فأخرجت له المصحف فأملت عليه آي السور. وهكذا رواه النسائي من حديث ابن جريج به **والمراد من التأليف هاهنا ترتيب سوره**. وهذا العراقي سأل أولا عن أي الكفن خير، أي: أفضل، فأخبرته عائشة رضي الله عنها أن هذا لا ينبغي أن يُعتني بالسؤال عنه ولا القصد له ولا الاستعداد، فإن في هذا تكلفا لا طائل تحته، وكانوا في ذلك الزمان يصفون أهل العراق بالتعنت في الأسئلة، كما سأل بعضهم عبد الله بن عمر عن دم البعوض يصيب الثوب، فقال عبد الله بن عمر: انظروا أهل العراق، يسألون عن دم البعوضة وقد قتلوا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم!. ولهذا لم تبالغ معه عائشة رضي الله عنها في الكلام لئلا يظن أن ذلك أمر مهم، وإلا فقد روى أحمد وأهل السنن من حديث سمرة وابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"البسوا من ثيابكم البياض، وكفنوا فيها موتاكم، فإنها أطهر وأطيب" وصححه الترمذي من الوجهين. وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كُفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثة أثواب بيض سحولية، ليس فيها قميص ولا عمامة. ثم سألها عن ترتيب القرآن فانتقل إلى سؤال كبير، وأخبرها أنه يُقرأ غير مؤلف، أي غير مرتب السور. وكان هذا قبل أن يبعث أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه إلى الآفاق بالمصاحف الأئمة المؤلفة على هذا الترتيب المشهور اليوم، وقبل الإلزام به، والله أعلم. ولهذا أخبرته: أنك لا يضرك بأي سورة بدأت، وأن أول سورة نزلت فيها ذكر الجنة والنار، وهذه إن لم تكن "اقرأ" فقد يحتمل أنها أرادت اسم جنس لسور المفصل التي فيها الوعد والوعيد، ثم لما انقاد الناس إلى التصديق أمروا ونهوا بالتدريج أولا فأولا، وهذا من حكمة الله ورحمته. ومعنى هذا الكلام: أن هذه السورة أو السور التي فيها ذكر الجنة والنار ليس البداءة بها في أوائل المصاحف، مع أنها من أول ما نزل، وهذه البقرة والنساء من أوائل ما في المصحف وقد نزلت عليه في المدينة وأنا عنده. فأما ترتيب الآيات في السور فليس في

ذلك رخصة، بل هو أمر توقيفي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما تقدم تقرير ذلك، ولهذا لم تُرخص له في ذلك، بل أخرجت له مصحفها، فأملت عليه آي السور، والله أعلم. وقول عائشة: لا يضرك بأي سورة بدأت، يدل على أنه لو قدم بعض السور أو أخر، كما دل عليه حديث حذيفة وابن مسعود، وهو في الصحيح أنه عليه السلام قرأ في قيام الليل بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران. وقد حكى القرطبي عن أبي بكر بن الأنباري في كتاب الرد أنه قال: فمن أخّر سورة مقدمة، أو قدم أخرى مؤخرة، كمن أفسد نظم الآيات وغير الحروف والآيات، وكان مستنده اتباع مصحف عثمان رضي الله عنه، فإنه مرتب على هذا النحو المشهور. ولقد حكى القاضي الباقلاني: أن أول مصحفه كان: "اقرأ باسم ربك الأكرم"، وأول مصحف ابن مسعود:{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، ثم البقرة، ثم النساء على ترتيب مختلف، وأول مصحف أبيّ:{الْحَمْدُ لِلَّهِ}، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأنعام، ثم المائدة، ثم كذا على اختلاف شديد، ثم قال القاضي: ويحتمل أن ترتيب السور في المصحف على ما هو عليه اليوم من اجتهاد الصحابة رضي الله عنهم، وكذا ذكره مكي في تفسير سورة براءة قال: فأما ترتيب الآيات والبسملة في الأوائل فهو من النبي صلى الله عليه وسلم. وقال ابن وهب في جامعه: سمعت سليمان بن بلال يقول: سئل ربيعة: لم قُدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة ؟ فقال: **قدمتا وأُلف القرآن على علم ممن ألفه، وقد أجمعوا على العلم بذلك، فهذا مما يُنتهى إليه ولا يُسأل عنه**. قال ابن وهب: وسمعت مالكا يقول: إنما أُلف القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي صلى الله عليه وسلم. قال أبو الحسن بن بطال: إنا نجد تأليف سوره في الرسم والخط خاصة ولا يُعلم أن أحدًا منهم قال: إن ترتيب ذلك واجب في الصلاة وفي قراءة القرآن ودرسه، وأنه لا يحل لأحد أن يقرأ الكهف قبل البقرة، ولا الحج قبل الكهف، ألا ترى إلى قول عائشة: ولا يضرك أيه قرأت قبل. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصلاة السورة في ركعة، ثم يقرأ في الركعة الأخرى بغير السورة التي تليها. **وأما ما روي عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسا وقالا إنما ذلك منكوس القلب، فإنما عنيا بذلك من يقرأ السورة منكوسةً فيبتدئ بآخرها إلى أولها، فإن ذلك حرام محذور.**

فأما نقط المصحف وشكله، فيقال: إن أول من أمر به عبد الملك بن مروان، فتصدى لذلك الحجاج وهو بواسط، فأمر الحسن البصري ويحيى بن يعمر ففعلا ذلك، ويقال: إن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي، وذكروا أنه كان لمحمد بن سيرين مصحف قد نقطه له يحيى بن يعمر، والله أعلم. وأما كتابة الأعشار على الحواشي فينسب إلى الحجاج أيضا، وقيل: بل أول من فعله المأمون، وحكى أبو عمرو الداني عن ابن مسعود أنه كره التعشير في المصحف، وكان يحكه وكره مجاهد ذلك أيضا. وقال مالك: لا بأس به بالحبر، فأما بالألوان المصبغة فلا، وأكره تعداد آي السور في أولها في المصاحف الأمهات، فأما ما يتعلم فيه الغلمان فلا أرى به بأسا. وقال قتادة: بدؤوا فنقطوا، ثم خمسوا، ثم عشروا. وقال يحيى بن أبي كثير: أول ما أحدثوا النقط على الباء والتاء والثاء، وقالوا: لا بأس به، هو نور له، أحدثوا نقطًا عند آخر الآي، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم. ورأى إبراهيم النخعي فاتحة سورة كذا، فأمر بمحوها، وقال: قال ابن مسعود: لا تخلطوا بكتاب الله ما ليس فيه. قال أبو عمرو الداني: ثم قد أطبق المسلمون في ذلك في سائر الآفاق على جواز ذلك في الأمهات وغيرها.

أُنزل القرآن على سبعة أحرف

يقول الإمام ابن كثير:

حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، حدثني عقيل عن ابن شهاب قال:حدثني عبيد الله بن عبد الله، أن عبد الله بن عباس حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف". وقد رواه -أيضًا- في بدء الخلق، ومسلم من حديث يونس ، ومسلم -أيضا- من حديث معمر، كلاهما عن الزهري بنحوه ورواه ابن جرير من حديث الزهري به، ثم قال الزهري: **بلغني أن تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحدا لا تختلف في حلال ولا في حرام**. حديث آخر عن أم أيوب: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن عبيد الله وهو ابن أبي يزيد -عن أبيه، عن أم أيوب- يعني امرأة أبي أيوب الأنصارية- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أنزل القرآن على سبعة أحرف، أيها قرأت جزاك". وهذا إسناد صحيح ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة.

قال أبو عبيد: قد تواترت هذه الأحاديث كلها عن الأحرف السبعة إلا ما حدثني عفان، عن حماد بن سلمة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة بن جندب، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "نزل القرآن على ثلاثة أحرف". قال أبو عبيد: ولا نرى المحفوظ إلا السبعة لأنها المشهورة، وليس معنى تلك السبعة أن يكون الحرف الواحد يُقرأ على سبعة أوجه، وهذا شيء غير موجود، ولكنه عندنا أنه نزل سبع لغات متفرقة في جميع القرآن من لغات العرب، فيكون الحرف الواحد منها بلغة قبيلة، والثاني بلغة أخرى سوى الأولى، والثالث بلغة أخرى سواهما، كذلك إلى السبعة، وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظا فيها من بعض، وذلك بيّن في أحاديث تترى، قال: وقد روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: نزل القرآن على سبع لغات، منها خمس بلغة العجز من هوازن. قال أبو عبيد: والعجز هم بنو أسعد بن بكر، وجشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف هم عليا هوازن الذين قال أبو عمرو بن العلاء: أفصح العرب عُليا هوازن وسُفلَى تميم يعني دارم. ولهذا قال عمر : لا يملي في مصاحفنا إلا غلمان قريش أو ثقيف. قال ابن جرير: واللغتان الأخريان: قريش وخزاعة رواه قتادة عن ابن عباس، ولكن لم يلقه. حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: كنت لا أدري ما{فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [فاطر: ١]، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. يقول: أنا ابتدأتها. إسناد جيد أيضا.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري، رحمه الله، بعد ما أورد طرفا مما تقدم: وصح وثبت أن الذي نزل به القرآن من ألسن العرب، البعض منها دون الجمع، إذ كان معلوما أن ألسنتها ولغاتها أكثر من سبع بما يعجز عن إحصائه، ثم قال: وما برهانك على ما قلته دون أن يكون معناه ما قاله مخالفوك، من أنه نزل بأمر وزجر، وترغيب وترهيب، وقصص ومثل، ونحو ذلك من الأقوال، فقد علمت قائل ذلك من سلف الأمة وخيار الأئمة؟ قيل له: إن الذين قالوا ذلك لم يدعوا أن تأويل الأخبار التي تقدم ذكرها، هو ما زعمت أنهم قالوه في الأحرف السبعة، التي نزل بها القرآن دون غيره فيكون ذلك لقولنا مخالفا، وإنما أخبروا أن القرآن نزل على سبعة أحرف، يعنون بذلك أنه نزل على سبعة أوجه، والذي قالوا من ذلك كما قالوا، وقد روينا بمثل الذي قالوا من ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن جماعة من الصحابة، من أنه نزل من سبعة أبواب الجنة، كما تقدم. يعني كما تقدم في رواية عن أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود: أن القرآن نزل من سبعة أبواب الجنة. قال ابن جرير: والأبواب السبعة من الجنة هي المعاني التي فيها من الأمر والنهي، والترغيب والترهيب، والقصص

والمثل، التي إذا عمل بها العامل وانتهى إلى حدودها المنتهي، استوجب بها الجنة. ثم بسط القول في هذا بما حاصله: **أن الشارع رخص للأمة التلاوة على سبعة أحرف، ثم لما رأى الإمام أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، اختلاف الناس في القراءة، وخاف من تفرق كلمتهم، جمعهم على حرف واحد، وهو هذا المصحف الإمام**. قال: واستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة، ورأت أن فيما فعله من ذلك الرشد والهداية، وتركت القراءة الأحرف الستة التي عزم عليها إمامها العادل في تركها طاعة منها له، ونظر منها لأنفسها وعن بعدها من سائر أهل ملتها، حتى دُرست من الأمة معرفتها، وتعفت آثارها، فلا سبيل اليوم لأحد إلى القراءة بها لدثورها وعفو آثارها. إلى أن قال: فإن قال من ضعفت معرفته: وكيف جاز لهم ترك قراءة اقرأهموها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرهم بقراءتها؟ قيل: إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمر إباحة ورخصة. لأن القراءة بها لو كانت فرضا عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة عند من يقوم بنقله الحجة، ويقطع خبره العذر، ويزيل الشك من قراءة الأمة، وفي تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا في القراءة بها مخيرين. إلى أن قال: فأما ما كان من اختلاف القراءة في رفع حرف ونصبه وجره وتسكين حرف وتحريكه، ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة في معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم:" أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف " بعزل، لأن المراء في مثل هذا ليس بكفر، في قول أحد من علماء الأمة، وقد أوجب صلى الله عليه وسلم بالمراء في الأحرف السبعة الكفر، كما تقدم. الحديث الثاني: قال البخاري رحمه الله: حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، حدثنا عقيل، عن ابن شهاب، قال: أخبرني عروة بن الزبير، أن المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن عبدٍ القارئ حدثاه أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكدت أساوره في الصلاة، فتبصرت حتى سلم فلببته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: كذبت، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"أرسله، اقرأ يا هشام"، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"كذلك أنزلت"، ثم قال: "اقرأ يا عمر"، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كذلك أنزلت. إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه". وقد رواه الإمام أحمد والبخاري -أيضا- ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي من طرق عن الزهري. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حرب بن ثابت، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن أبيه، عن جده، قال: " قرأ رجل عند عمر فغير عليه فقال: قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يغير عليّ، قال : فاجتمعا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقرأ الرجل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: "قد أحسنت". قال: فكأن عمر وجد من ذلك، **فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا عمر، إن القرآن كله صواب، ما لم يُجعل عذاب مغفرة أو مغفرة عذابا"**. وهذا إسناد حسن. وحرب بن ثابت هذا يكنى بأبي ثابت، لا نعرف أحدا جرحه.

وقد اختلف العلماء في معنى هذه السبعة الأحرف وما أريد منها على أقوال. قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي المالكي في مقدمات تفسيره: وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا ذكرها أبو حاتم محمد بن حبان البستي ، ونحن نذكر منها خمسة أقوال. قلت: ثم سردها القرطبي، وحاصلها ما

أنا مورده ملخصا. فالأول، وهو قول أكثر أهل العلم، منهم سفيان بن عيينة، وعبد الله بن وهب، وأبو جعفر بن جرير، والطحاوي- أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة، نحو: أقبل وتعال وهلم. وقال الطحاوي: وأبين ما ذكر في ذلك حديث أبي بكرة قال: جاء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: اقرأ على حرف، فقال ميكائيل: استزده فقال: اقرأ على حرفين، فقال ميكائيل: استزده، حتى بلغ سبعة أحرف، فقال: **اقرأ فكل شاف كاف إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب، أو آية عذاب بآية رحمة، على نحو هلم وتعال وأقبل واذهب واسرع وعجل**. وروي عن ورقاء عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبيّ بن كعب: أنه كان يقرأ:{يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ}[الحديد: ١٣]: "للذين آمنوا أمهلونا" "للذين آمنوا أخرونا" "للذين آمنوا ارقبونا"، وكان يقرأ:{كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ}[البقرة: ٢٠]: "مروا فيه" "سعوا فيه". قال الطحاوي وغيره: وإنما كان ذلك رخصة أن يقرأ الناس القرآن على سبع لغات، وذلك لما كان يتعسر على كثير من الناس التلاوة على لغة قريش، وقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم، **لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الحفظ**. وقد ادعى الطحاوي والقاضي الباقلاني والشيخ أبو عمرو بن عبد البر أن ذلك كان رخصة في أول الأمر، **ثم نسخ بزوال العذر وتيسير الحفظ وكثرة الضبط وتعلم الكتابة**. قلت: وقال بعضهم: إنما كان الذي جمعهم على قراءة واحدة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، أحد الخلفاء الراشدين المهديين المأمور باتباعهم، وإنما جمعهم عليها لما رأى من اختلافهم في القراءة المفضية إلى تفرق الأمة وتكفير بعضهم بعضًا، فرتب لهم المصاحف الأئمة على العرضة الأخيرة التي عارض بها جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر رمضان من عمره، عليه الصلاة والسلام، **وعزم عليهم ألا يقرؤوا بغيرها، وألا يتعاطوا الرخصة التي كانت لهم فيها سعة ولكنها أفضت إلى الفرقة والاختلاف**، كما ألزم عمر بن الخطاب الناس بالطلاق الثلاثة المجموعة حين تتابعوا فيها وأكثروا منها، قال: فلو أنا أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم. وكان كذلك ينهى عن المتعة في أشهر الحج لئلا ينقطع زيارة البيت في غير أشهر الحج. وقد كان أبو موسى يفتي بالتمتع فترك فتياه اتباعا لأمير المؤمنين وسمعا وطاعة لأئمة المهديين.

القول الثاني: أن القرآن نزل على سبعة أحرف، وليس المراد أن جميعه يُقرأ على سبعة أحرف، ولكن بعضه على حرف وبعضه على حرف آخر. قال الخطابي: وقد يُقرأ بعضه بالسبع لغات كما في قوله:{وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ}[المائدة: ٦٠] و{يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ}[يوسف: ١٢]. وقال القاضي الباقلاني: ومعنى قول عثمان: إنه نزل بلسان قريش، أي: معظمه، ولم يقم دليل على أن جميعه بلغة قريش كله، قال الله تعالى:{قُرْآنًا عَرَبِيًّا}[يوسف: ٢]، ولم يقل: قرشيا. قال: واسم العرب يتناول جميع القبائل تناولا واحدا، يعني حجازها ويمنها، وكذلك قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر، قال: لأن غير لغة قريش موجودة في صحيح القراءات بتحقيق الهمزات، فإن قريشا لا تهمز.

القول الثالث: أن لغات القرآن السبع منحصرة في مضر على اختلاف قبائلها خاصة، لقول عثمان: إن القرآن نزل بلغة قريش، وقريش هم بنو النضر بن الحارث على الصحيح من أقوال أهل النسب، كما نطق به الحديث في سنن ابن ماجه وغيره.

القول الرابع: وحكاه الباقلاني عن بعض العلماء، أن وجوه القراءات ترجع إلى سبعة أشياء، منها ما تتغير حركته ولا تتغير صورته ولا معناه مثل:{وَيَضِيقُ صَدْرِي}[الشعراء: ١٣] و"يضيقَ"، ومنها ما لا تتغير صورته ويختلف معناه مثل:{فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا}[سبأ: ١٩] و"باعَدَ بين أسفارنا"، وقد يكون الاختلاف في الصورة والمعنى بالحرف

مثل:{نُنْشِزُهَا}[البقرة: ٢٥٩]، و"نَنشُرُها"، أو بالكلمة مع بقاء المعنى [مثل] {كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ}[القارعة: ٥]، أو "كالصوف المنفوش"، أو باختلاف الكلمة بالتقدم والتأخر مثل:{وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ}[ق: ١٩] ، أو "سكرة الحق بالموت"، أو بالزيادة مثل "تسع وتسعون نعجة أنثى" ، "وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين". "فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور".

القول الخامس: أن المراد بالأحرف السبعة معاني القرآن وهي: **أمر، ونهي، ووعد، ووعيد، وقصص، ومجادلة، وأمثال**. قال ابن عطية: وهذا ضعيف، لأن هذه لا تسمى حروفا، وأيضا فالإجماع أن التوسعة لم تقع في تحليل حلال ولا في تغيير شيء من المعاني، وقد أورد القاضي الباقلاني في هذا حديثًا، ثم قال: وليست هذه هي التي أجاز لهم القراء بها.

ويقول الإمام القرطبي:

باب معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه

روى مسلم عن أبي بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة بني غفار فأتاه جبريل عليه السلام فقال: "إن الله يأمرك أن تُقرأ أمتك القرآن على حرف. فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك. ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين. فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك. ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف. فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك. ثم جاء الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا".

وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا ذكرها أبو حاتم محمد بن حبان السبتي نذكر منها في هذا الكتاب خمسة أقوال :

الأول: وهو الذي أكثر أهل العلم كسفيان بن عيينة وعبدالله بن وهب والطبري والطحاوي وغيرهم: أن المراد سبعة أوجه في المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة نحو أقبل وتعال وهلم. قال الطحاوي: وأبين ما ذكر في ذلك حديث أبي بكرة قال: جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال اقرأ على حرف، فقال ميكائيل: استزده فقال اقرأ على حرفين فقال ميكائيل: استزده حتى بلغ إلى سبعة أحرف، فقال: اقرأ فكل شاف كاف إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب أو آية عذاب بآية رحمة، على نحو هلم وتعال وأقبل واذهب وأسرع وعجل. وروى ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ {لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا}: للذين آمنوا أمهلونا، للذين آمنوا أخرونا، للذين آمنوا ارقبونا. وبهذا الإسناد عن أبي أنه كان يقرأ {كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ}: مروا فيه، سعوا فيه. وفي البخاري ومسلم قال الزهري: إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ليس يختلف في حلال ولا حرام. قال الطحاوي: إنما كانت السعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم، لأنهم كانوا أميين لا يكتب إلا القليل منهم، فلما كان يشق على كل ذي لغة أن يتحول إلى غيرها من اللغات، ولو رام ذلك لم يتهيأ إلا بمشقة عظيمة، فوُسع لهم في اختلاف الألفاظ إذا كان المعنى متفقا، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدروا بذلك على تحفظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن

يقرءوا بخلافها. قال ابن عبدالبر: فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان في وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك ثم ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد.

القول الثاني: قال قوم هي سبع لغات في القرآن على لغات العرب كلها يمنها ونزارها لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجهل شيئا منها وكان قد أوتي جوامع الكلم، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه. ولكن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوزان، وبعضه بلغة اليمن. قال الخطابي: على أن في القرآن ما قد قريء بسبعة أوجه، وهو قوله:{وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ}، وقوله:{أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ}؛ وذكر وجوها كأنه يذهب إلى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف لا كله. وإلى هذا القول بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف على سبع لغات ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام واختاره ابن عطية. قال أبو عبيد: وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظا فيها من بعض. وذكر حديث ابن شهاب عن أنس أن عثمان قال لهم حين أمرهم أن يكتبوا المصاحف: ما اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش فإنه نزل بلغتهم. ذكره البخاري، وذكر حديث ابن عباس قال: نزل القرآن بلغة الكعبين، كعب قريش وكعب خزاعة. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن الدار واحدة. قال أبو عبيد: يعني أن خزاعة جيران قريش فأخذوا بلغتهم. قال القاضي ابن الطيب رضي الله عنه: معنى قول عثمان فإنه نزل بلسان قريش يريد معظمه وأكثره، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بلغة قريش فقط، إذ فيه كلمات وحروف هي خلاف لغة قريش، وقد قال الله تعالى:{إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً} ولم يقل قريشيا، وهذا يدل على أنه منزل بجميع "لسان العرب"، وليس لأحد أن يقول: إنه أراد قريشا من العرب دون غيرها، كما أنه ليس له أن يقول: أراد لغة عدنان دون قحطان أو ربيعة دون مضر، لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولا واحدا. وقال ابن عبدالبر: قول من قال إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عندي في الأغلب والله أعلم، لأن غير لغة قريش موجودة في صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها، وقريش لا تهمز. وقال ابن عطية: معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم أنزل القرآن على سبعة أحرف، أي فيه عبارة سبع قبائل بلغة جملتها نزل القرآن، فيعبر عن المعنى فيه مرة بعبارة قريش ومرة هذيل ومرة بغير ذلك بحسب الأفصح والأوجز في اللفظ. ألا ترى أن (فطر) معناه عند غير قريش: ابتداء "خلق الشيء وعمله"، فجاءت في القرآن فلم تتجه لابن عباس، حتى اختصم إليه أعرابيان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها، قال ابن عباس: ففهمت حينئذ موضع قوله تعالى:{فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}. وقال أيضا: ما كنت أدري معنى قوله تعالى:{رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ} حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها: تعال أفاتحك، أي أحاكمك. وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعالى:{أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ}، أي على تنقص لهم؛ وكذلك اتفق لقطبة بن مالك إذ سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصلاة:{وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ}، ذكره مسلم في باب القراءة في صلاة الفجر إلى غير ذلك من الأمثلة.

القول الثالث: أن هذه اللغات السبع إنما تكون في مضر، قاله قوم واحتجوا بقول عثمان نزل القرآن بلغة مضر. وقالوا: جائز أن يكون منها لقريش ومنها لكنانة ومنها لأسد ومنها لهذيل ومنها لتيم ومنها لضبة ومنها لقيس، قالوا: هذه قبائل مضر تستوعب سبع لغات على هذه المراتب؛ وقد كان ابن مسعود يحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر. وأنكر آخرون أن تكون كلها من مضر، وقالوا: في مضر شواذ لا يجوز أن يُقرأ القرآن بها، مثل كشكشة قيس وتمتمة تميم، فأما

كشكشة قيس فإنهم يجعلون كاف المؤنث شينا، فيقولون في{جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً} جعل ربش تحتش سريا، وأما تمتمة تميم فيقولون في الناس النات، وفي أكياس أكيات؛ قالوا وهذه لغات يُرغب عن القرآن بها ولا يُحفظ عن السلف فيها شيء. وقال آخرون: أما إبدال الهمزة عينا وإبدال حروف الحلق بعضها من بعض، فمشهور عن الفصحاء وقد قرأ به الجلة واحتجوا بقراءة ابن مسعود:{لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ}.

القول الرابع: ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلماء وحكى نحوه القاضي ابن الطيب، قال: تدبرت وجوه الاختلاف في القراءة فوجدتها سبعا، منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته مثل: {هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ} وأطهرَ، {وَيَضِيقُ صَدْرِي} ويضيقَ. ومنها ما لا تتغير صورته ويتغير معناه بالإعراب، مثل:{رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا} وباعد. ومنها ما تبقى صورته ويتغير معناه باختلاف الحروف مثل قوله:{نُنْشِزُهَا} وننشرها. ومنها ما تتغير صورته ويبقى معناه {كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ} وكالصوف المنفوش. ومنها ما تتغير صورته ومعناه مثل:{وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ} وطلع منضود. ومنها بالتقديم والتأخير كقوله:{وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ}، وجاءت [سكرة] الحق بالموت. ومنها بالزيادة والنقصان مثل قوله:{تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً} أنثى. وقوله: وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين، وقوله: فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم.

القول الخامس: أن المراد بالأحرف السبعة معاني كتاب الله تعالى وهي أمر ونهي ووعد ووعيد وقصص ومجادلة وأمثال، قال ابن عطية: وهذا ضعيف لأن هذا لا يسمى أحرفا، وأيضا فالإجماع على أن التوسعة لم تقع في تحليل حرام ولا في تغيير شيء من المعاني. وذكر القاضي ابن الطيب في هذا المعنى حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: ولكن ليست هذه هي التي أجاز لهم القراءة بها، وإنما الحرف في هذه بمعنى الجهة والطريقة، ومنه قوله تعالى:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ}، فكذلك معنى هذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك. وقد قيل: إن المراد بقوله عليه السلام أُنزل القرآن على سبعة أحرف القراءات السبع التي قرأ بها القراء السبعة لأنها كلها صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا ليس بشيء لظهور بطلانه على ما يأتي.

(فصل) قال كثير من علمائنا كالداودي وابن صفرة وغيرهما: هذه القراءات السبع التي تُنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف، ذكره ابن النحاس وغيره. وهذه القراءات المشهورة هي اختيارات أولئك الأئمة القراء. وذلك أن كل واحد منهم اختار فيما روى وعلم وجهه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى، فالتزمه طريقة ورواه وأقرأ به واشتُهر عنه وعُرف به ونُسب إليه، فقيل حرف نافع وحرف ابن كثير، ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكره بل سوغه وجوزه كل واحد من هؤلاء السبعة روي عنه اختياران أو أكثر وكل صحيح، وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا في ذلك مصنفات، فاستمر الإجماع على الصواب وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب، وعلى هذا الأئمة المتقدمون والفضلاء المحققون كالقاضي أبي بكر بن الطيب والطبري وغيرهما. قال ابن عطية: ومضت الأعصار والأمصار على قراءات السبعة وبها يُصلى لأنها ثبتت بالإجماع، وأما شاذ

القراءات فلا يُصلى به لأنه لم يجمع الناس عليه. أما شاذ القراءة عن المصاحف المتواترة فليست بقرآن ولا يعمل بها على أنها منه، وأحسن محاملها أن تكون بيان تأويل مذهب من نسبت إليه كقراءة ابن مسعود فصيام ثلاثة أيام متتابعات.

تفسير القرآن

يقول الإمام ابن كثير:

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يُفَسَّر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِل في مكان فإنه قد فُسِّر في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله: كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى:{إِنَّا أَنزلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا}[النساء: ١٠٥]، وقال تعالى:{وَأَنزلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نزلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[النحل: ٤٤]، وقال تعالى:{وَمَا أَنزلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[النحل: ٦٤]. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه"، يعني: السنة. والسنة أيضًا تنزل عليه بالوحي، كما يُنزل القرآن، إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن، وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة. والغرض أنك تطلب تفسيرَ القرآن منه، فإن لم تجدْه فمن السنة، كما قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن:"بم تحكم؟". قال:بكتاب الله. قال:"فإن لم تجد؟". قال: بسنة رسول الله. قال: "فإن لم تجد؟ ". قال: أجتهد برأيي. قال: فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدره وقال: "الحمد لله الذي وفَّق رَسُولَ رسولِ الله لما يرضى رسول الله". وهذا الحديث في المساند والسنن بإسناد جيد. وحينئذ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختُصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين والأئمة المهديين. وإذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جَبْر فإنه كان آية في التفسير كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح، عن مجاهد، قال: عَرَضْتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا طَلْق بن غنام، عن عثمان المكي، عن ابن أبي مُلَيْكَة قال: رأيت مجاهدًا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله. ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وكسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق ابن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مُزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتُذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ، يحسبها من لا علم عنده اختلافًا فيحكيها أقوالا وليس كذلك، فإن منهم من يعبّر عن

الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليتفطن اللبيب لذلك، والله الهادي. وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة؟ فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يُرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويُرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، لما رواه محمد بن جرير، رحمه الله، حيث قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سفيان، حدثني عبد الأعلى، هو ابن عامر الثعلبي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"**من قال في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم، فليتبوأ مقعده من النار**". ولهذا تَحَرَّج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما روى شعبة، عن سليمان، عن عبد الله بن مرة، عن أبي مَعْمَر، قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: **أيّ أرض تقلّني وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم**. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا محمد بن يزيد، عن العَوَّام بن حَوْشَب، عن إبراهيم التَّيْمِي، أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله:{وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}[عبس: ٣١]، فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم. منقطع. وقال أبو عبيد أيضًا: حدثنا يزيد، عن حميد، عن أنس، أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر:{وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}[عبس: ٣١]، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبّ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: **إن هذا لهو التكلف يا عمر**. وقال عَبْد بن حُمَيْد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس، قال: كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي ظهر قميصه أربع رقاع، فقرأ:{وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}، فقال: ما الأب؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف فما عليك ألا تدريه. وهذا كله محمول على أنهما، رضي الله عنهما، إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نبتا من الأرض ظاهر لا يُجهل، لقوله:{فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا}، الآية [عبس: ٢٧، ٢٨]. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن أيوب، عن ابن أبي مُلَيْكَة: أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها. إسناده صحيح. وقال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة، قال: سأل رجل ابن عباس عن:{يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ}[السجدة: ٥]، فقال له ابن عباس: فما {يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}[المعارج: ٤]؟ فقال له الرجل: إنما سألتك لتحدثني. فقال ابن عباس: **هما يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه، الله أعلم بهما**. فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم. وقال ابن شَوْذَب: حدثني يزيد بن أبي يزيد، قال: كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت ، كأن لم يسمع.

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا، فلا حرج عليه. ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى:{لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ}[آل عمران: ١٨٧]، ولما جاء في الحديث المروى من طرق:"من سئل عن علم فكتمه، أُلْجِم يوم القيامة بلجام من نار". **فإن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه**، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يُعذر أحد في جهله، كما صرح بذلك ابن

عباس فيما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مُؤَمَّل، حدثنا سفيان، عن أبي الزناد [عن الأعرج]، قال: قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله. رواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٣١) وأبو داود في السنن برقم (٤٦٠٤) من حديث المقدام بن معدى كرب ، رضي الله عنه. والترمذي في السنن برقم (١٣٢٨) من طرق عن شعبة عن أبي عون عن الحارث بن عمرو عن ناس من أصحاب معاذ عن معاذ به، وقال الترمذي: "هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده عندي بمتصل، وأبو عون الثقفي اسمه محمد بن عبيد الله".

رأي ابن كثير في الإسرائيليات[٧]:

الحافظ ابن كثير، رحمه الله له كلمات قوية في شأن الإسرائيليات وروايتها، وتفسيره يُعد من الكتب الخالية من الإسرائيليات، اللهم إلا القليل الذي يحكيه ثم ينبه عليه، والنادر الذي يسكت عنه. ومن كلماته في الإسرائيليات قال في مقدمة تفسيره: "ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره، عن هذين الرجلين: عبد الله بن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، التي أباحها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "بَلِّغوا عني ولو آية، وحَدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج، ومن كذب عَلَيَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار" رواه البخاري عن عبد الله. ولهذا كان عبد الله بن عمرو يوم اليرموك قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك. ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد. فإنها على ثلاثة أقسام: أحدها ما علمنا صحتَه مما بأيدينا مما نشهدُ له بالصدق، فذاك صحيح. والثاني: ما علمنا كذبَه بما عندنا مما يخالفه. والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمِنُ به ولا نكذّبه، وتجوزُ حكايتُه لما تقدّم. **وغالبُ ذلك مما لا فائدة فيه تعودُ إلى أمرٍ دينيّ**. ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيرًا، ويأتي عن المفسرين خلافٌ بسبب ذلك. كما يَذكرون في مثل أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعِدّتهم، وعصا موسى من أيّ شجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضُرِبَ به القتيلُ من البقرة، ونوع الشجرة التي كلَّم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن، **مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم**. ولكن نَقلُ الخلاف عنهم في ذلك جائز. كما قال تعالى:{سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ} إلى آخر الآية [الكهف : ٢٢]، **فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا**، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعَّف القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما، **ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته**، فقال في مثل هذا:{قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ}، فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه، فلهذا قال:{فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِرًا} أي: **لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب**. فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتُبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته، لئلا يطول النزاع والخلاف

[٧] من مقدمة سامي بن محمد سلامة محقق احدى نسخ "تفسير القرآن العظيم"

فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم. فأما من حكى خلافًا في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه. أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضًا. فإن صحح غير الصحيح عامدا فقد تعمد الكذب، أو جاهلا فقد أخطأ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالا متعددة لفظًا ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبي زور، والله الموفق للصواب.

وقال ابن كثير عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الكهف، بعد أن ذكر أقوالا في "إبليس" واسمه ومن أيّ قبيلٍ هو؟!:"وقد رُوِى في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبُها من الإسرائيليات التي تُنقل ليُنْظَر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يُقْطَع بكذبه، لمخالفته للحقّ الذي بأيدينا. وفي القرآن غُنْيَةٌ عن كلّ ما عداه من الأخبار المتقدمة، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وُضِعَ فيها أشياء كثيرة. وليس لهم من الحفّاظ المُتْقِنين الذين يَنْفُون عنها تحريفَ الغَالِين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء والبررة والنجباء، من الجهابذة النقّاد، والحُفَّاظ الجياد، الذين دَوَّنوا الحديث وحَرَّرُوه، وبيَّنوا صحيحَه من حَسَنه من ضعيفه، من منكَره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضَّاعِين والكذّابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال. **كلُّ ذلك صيانةً للجناب النبويّ والمقام المحمديّ، خاتم الرسل وسيد البشر، صلى الله عليه وسلم، أن يُنْسَب إليه كذبٌ أو يُحَدَّثَ عنه بما ليس منه**. فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجَعَل جنّاتِ الفردوس مأواهم. وقد فَعَلَ".

وقال عند تفسير الآيات (٥١ – ٥٦) من سورة الأنبياء، بعد إشارته إلى حال إبراهيم عليه السلام مع أبيه، ونظره إلى الكواكب والمخلوقات: "وما قَصَّه كثيرٌ من المفسّرين وغيرهم، فعَامّتُها أحاديثُ بني إسرائيل. فما وافقَ منها الحقّ مما بأيدينا عن المعصوم قَبِلْناه، لموافقته الصحيح، وما خالف منها شيئًا من ذلك ردَدْناه، وما ليس فيه موافقةٌ ولا مخالفةٌ لا نصدّقه ولا نكذّبه، بل نجعله وَقْفًا. وما كان من هذا الضَّرْبِ منها فقد رخَّص كثير من السلف في روايته. **وكثيرٌ من ذلك مما لا فائدة فيه، ولا حاصلَ له مما يُنْتَفَع به في الدّين. ولو كانت فائدتُه تعود على المكلَّفين في دينهم لبيَّنَتْه هذه الشريعةُ الكاملةُ الشاملةُ**. والذي نَسْلُكُه في هذا التفسير الإعراضُ عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتَمل عليه كثيرٌ منها من الكذب المزَوَّج عليهم. فإنهم لا تَفْرِقَةَ عندهم بين صحيحها وسقيمها. كما حَرّره الأئمةُ الحُفّاظ المُتْقِنُون من هذه الأمة".

وقال عند تفسير الآية (١٠٢) من سورة البقرة: "وقد رُوي في قصة هاروتَ وماروتَ عن جماعة من التابعين، كمجاهد والسُّدي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية والزهري والرَّبيع بن أنس ومقاتل ابن حيّان وغيرهم، وقصَّها خلقٌ من المفسّرين، من المتقدّمين والمتأخرين. وحاصلُها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديثٌ مرفوع صحيح متّصلُ الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى. وظاهرُ سياق القرآن إجمالُ القصة من غير بسْطٍ ولا إطنابٍ فيها، فنحن نؤمِن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال".

وقال في أول سورة ق: "وقد رُوي عن بعض السلف أنهم قالوا: ق، **جبل مُحيطٌ بجميع الأرض**، يقال له جبل قاف!!! وكأنّ هذا – والله أعلم – من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعضُ الناس، لِمَا رأَى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدَّق ولا يُكَذَّب. وعندي أن هذا وأمثالَه وأشباهَه من اختلاقِ بعض زنادقتهم ، يَلْبِسُون به على الناس أمرَ دينهم. **كما افْتُرِيَ في هذه الأمة – مع جلالة قدر علمائها وحُفّاظها وأئمتها– أحاديثُ عن النبي صلى الله عليه وسلم، وما بالعَهْدِ من قِدَمٍ**. فكيف بأمةِ بني إسرائيل، مع طول المدَى، وقلة الحُفَّاظ النُّقَّاد فيهم، وشرهم الخمور، وتحريف علمائِهم الكلمَ عن مَوَاضعه وتبديلِ كُتُب الله وآياتِه. **وإنما أباح الشارعُ الروايةَ عنهم في قوله: "وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" فيما قد يُجَوِّزُه العقل. فأما فيما تحِيلُه العقول، ويُحْكَم فيه بالبُطلان، ويَغْلبُ على الظنون كذبُه، فليس من هذا القبيل**".

وقال عند تفسير الآيات (٤١ – ٤٤) من سورة النمل – وقد ذكر في قصة ملكة سبأ **أثرًا طويلا عن ابن عباس، وَصَفَه بأنه "منكر غريب جدًا"**– ثم قال: "والأقربُ في مثل هذه السياقات أنها متلقَّاةٌ عن أهل الكتاب، مما وُجد في صُحُفهم، كروايات كعب ووَهْب، سامحهما الله فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل، من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان وما لم يكن، ومما حُرِف وبدِّل ونُسِخَ. **وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصحُّ منه وأنفعُ وأوضحُ وأبلغُ**. ولله الحمد والمنة".

وقال عند تفسير الآية (٤٦) من سورة العنكبوت– بعد أن رَوَى الحديث: "إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم" – قال : "**ثم ليُعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل وما أقل الصدق فيه، ثم ما أقل فائدته**".

وقال عند تفسير قوله تعالى:{وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى}[طه: ١٨]: "أي مصالح ومنافع وحاجات أخرى غير ذلك، وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمته، فقيل: **كانت تضيء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى، عليه الصلاة والسلام، صيرورتها ثعبانًا، فما كان يفر منها هاربًا، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية**".

ويقول الإمام القرطبي:

باب ما جاء في فضل تفسير القرآن وأهله

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وأما ما جاء في فضل التفسير عن الصحابة والتابعين فمن ذلك أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم، فقال له رجل: جُعلت فداءك! تصف جابرا بالعلم وأنت أنت! فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ}. وقال مجاهد: أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل. وقال الحسن : والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يُعلم فيما أُنزلت وما يُعنى بها. وقال الشعبي: رحل المسروق إلى البصرة في تفسير آية فقيل له إن الذي يفسرها رحل إلى الشام، فتجهز ورحل إلى الشام حتى علم تفسيرها. وقال ابن عباس:

مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يمنعني إلا مهابته، فسألته فقال هي حفصة وعائشة. وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما في الكتاب.

باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي، والجرأة على ذلك، ومراتب المفسرين

روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر من كتاب الله إلا آيا بعدد عَلَّمه إياهن جبريل. قال ابن عطية: ومعنى هذا الحديث في مغيبات القرآن وتفسير مجمله ونحو هذا مما لا سبيل إليه إلا بتوفيق من الله تعالى، ومن جملة مغيباته ما لم يُعلِم الله به، كوقت قيام الساعة ونحوها مما يستقري من ألفاظه، كعدد النفخات في الصور وكرتبة خلق السموات والأرض. روى الترمذي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اتقوا الحديث علي إلا ما علمتم، فمن كذب علي متعمدا فليبوأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار". قال أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنباري النحوي اللغوي في كتاب الرد فسر حديث ابن عباس تفسيرين: أحدهما، من قال في مُشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرض لسخط الله. والجواب الآخر، وهو أثبت القولين وأصحهما معنى، من قال في القرآن قولا يعلم أن الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار. ومعنى يتبوأ ينزل ويحل. وقال ابن عطية: ومعنى هذا أن يُسأل الرجل عن معنى في كتاب الله عز وجل فيتسور عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء واقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول. وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر، فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرد رأيه. قلت: هذا صحيح وهو الذي اختاره غير واحد من العلماء، فإن من قال فيه بما سنح في وهمه وخطر على باله من غير استدلال عليه بالأصول فهو مخطيء، وإن من استنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح. وإنما النهي يحمل على أحد وجهين: أحدهما، أن يكون له في الشيء رأي وإليه ميل في طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى. وهذا النوع يكون تارة مع العلم، كالذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك، ولكن مقصوده أن يلبس على خصمه؛ وتارة يكون مع الجهل وذلك إذا كانت الآية محتمله فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه، فيكون قد فسره برأيه، أي رأيه حمله على ذلك التفسير ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه. وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي، فيقول قال الله تعالى:{اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}، ويشير إلى قلبه ويوميء إلى أنه المراد بفرعون. وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع، وهو ممنوع لأنه قياس في اللغة، وذلك غير جائز. وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة، فيُنزِلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون مراده. فهذه الفنون أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي. الوجه الثاني، أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ

المبهمة والمبدلة، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير. فمن لم يُحكِم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية، كثُر غلطه ودخل في زمرة القرآن بالرأي والنقل والسماع، لابد له منه في ظاهر التفسير أولا ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط. والغرائب التي لا تُفهم إلا بالسماع كثيرة، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، ألا ترى أن قوله تعالى:{وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا}، معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها. فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولا يدري بماذا ظلموا وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم، فهذا من الحذف والإضمار، وأمثال هذا في القرآن كثير. وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرق النهي إليه والله أعلم.

قال ابن عطية : وكان جلة من السلف الصالح كسعيد بن المسيب وعامر الشعبي وغيرهما يعظمون القرآن ويتوقفون عنه تورعا واحتياطا لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم. قال أبو بكر الأنباري: وقد كان الأئمة من السلف الماضي يتورعون عن تفسير المُشكل من القرآن، فبعض يقدر أن الذي يفسره لا يوافق مراد الله عز وجل فيحجم عن القول، وبعض يشفق من أن يجعل في التفسير إماما يُبنى على مذهبه ويقتفى طريقه، فلعل متأخرا أن يفسر حرفا برأيه ويخطيء فيه ويقول إمامي في تفسير القرآن بالرأي فلان الإمام من السلف. وروى أبو داود عن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ألا وإني قد أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه[٨] فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه". قال الخطابي : قوله أوتيت الكتاب ومثله معه يحتمل وجهين من التأويل: أحدهما، أن معناه أنه أوتي من الوحي غير المتلو مثل ما أعطي من الظاهر المتلو. والثاني، أنه أوتي الكتاب وحيا يتلى وأوتي من البيان مثله، أي أُذن له أن يبين ما في الكتاب فيعم ويخص ويزيد عليه، ويشرع ما في الكتاب فيكون في وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن. وقوله يوشك رجل شبعان، الحديث، يحذر بهذا القول من مخالفة السنن التي سنها مما ليس له في القرآن ذكر على ما ذهبت إليه الخوارج والروافض فإنهم تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التي قد تضمنت بيان الكتاب؛ قال: فتحيروا وضلوا؛ قال: والأريكة السرير، قال: وإنما أراد بالأريكة أصحاب الترفه والدعة الذين لزموا البيوت لم يطلبوا العلم من مظانه، وقوله إلا أن يستغني عنها صاحبها معناه أن يتركها صاحبها لمن أخذها استغناء عنها، كقوله:{فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ}، معناه تركهم الله استغناء عنهم. وقوله: فله أن يعقبهم بمثل قراه، هذا هو حال المضطر الذي لا يجد طعاما ويخاف التلف على نفسه فله أن يأخذ من مالهم بقدر قراه عوض ما حرموه من قراه[٩]، ويعقبهم يروى مشددا ومخففا من المعاقبة، ومنه قوله تعالى:{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ} أي فكانت الغلبة لكم فغنمتم منهم، وكذلك لهذا أن يغنم من أموالهم بقدر قراه. ثم البيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين: بيان مجمل في الكتاب كبيانه للصلوات الخمس في مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتها وما الذي تؤخذ منه من الأموال، وبيانه لمناسك الحج. قال صلى الله عليه وسلم إذ حج بالناس: "خذوا عني مناسككم". وقال: "صلوا كما رأيتموني أصلي" . أخرجه البخاري. **وروى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال**

[٨] قرى الضيف: أضافه وأكرمه (المعجم الوجيز)

[٩] يصعب على المرء أن يتقبل أن يسمح رسول الله صلى الله عليه وسلم لشخص ما بالسرقة من مال الآخرين عقابا لهم على تفريطهم في استضافته. (المصنف)

لرجل: إنك رجل أحمق أتجد الظهر في كتاب الله أربعا لا يُجهر فيها بالقراءة! ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله مفسرا! إن كتاب الله تعالى أبهم هذا وإن السنة تفسر هذا.

اغتباط صاحب القرآن

يقول الإمام ابن كثير:

حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، حدثني سالم بن عبد الله أن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الكتاب فقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالا فهو يتصدق به آناء الليل والنهار". انفرد به البخاري من هذا الوجه، واتفقا على إخراجه من رواية سفيان عن الزهري، ثم قال البخاري: حدثنا علي بن إبراهيم، حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن سليمان: سمعت ذَكْوان، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل،ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل". ومضمون هذين الحديثين أن صاحب القرآن في غبطة وهو حسن الحال، فينبغي أن يكون شديد الاغتباط بما هو فيه، ويستحب تغبيطه بذلك، يقال: غبطه يغبِطه غبطًا: إذا تمنى ما هو فيه من النعمة، وهذا بخلاف الحسد المذموم وهو تمني زوال نعمة المحسود عنه، سواء حصلت لذلك الحاسد أو لا؛ وهذا مذموم شرعًا، مهلكٌ، وهو أول معاصي إبليس حين حسد آدم عليه السلام على ما منحه الله تعالى من الكرامة والاحترام والإعظام. والحسد الشرعي الممدوح هو تمني مثل حال ذلك الذي هو على حالة سارة، ولهذا قال عليه السلام: "لا حسد إلا في اثنتين" ، فذكر النعمة القاصرة وهي تلاوة القرآن آناء الليل والنهار، والنعمة المتعدية وهي إنفاق المال بالليل والنهار، كما قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ}[فاطر: ٢٩]. وقد رُوي نحو هذا من وجه آخر، فقال عبد الله بن الإمام أحمد: وجدت في كتاب أبي بخط يده: كتب إليّ أبو توبة الربيع بن نافع، فكان في كتابه: حدثنا الهيثم بن حميد، عن زيد بن واقد، عن سليمان بن موسى، عن كثير بن مرة، عن يزيد بن الأخنس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تنافس بينكم إلا في اثنتين: رجل أعطاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ويتبع ما فيه، فيقول رجل: لو أن الله أعطاني مثل ما أعطى فلانا فأقوم كما يقوم به، ورجل أعطاه الله مالا فهو ينفقه ويتصدق، فيقول رجل: لو أن الله أعطاني مثل ما أعطى فلانا فأتصدق به". وقريب من هذا ما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبادة بن مسلم، حدثني يونس بن خباب، عن أبي سعيد البختري الطائي، عن أبي كبشة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ثلاث أقسم عليهن، وأحدثكم حديثا فاحفظوه، فأما الثلاث التي أقسم عليهن: فإنه ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظُلِم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزا، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر، وأما الذي أحدثكم حديثا فاحفظوه فإنه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر، عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقي فيه ربه ويصل رحمه، ويعمل لله فيه حقه، قال: **فهذا بأفضل المنازل**؛ وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو يقول: لو

كان لي مال عملت بعمل فلان، قال: فأجرهما سواء؛ وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعمل لله فيه حقه، فهذا بأخبث المنازل؛ وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول: لو كان لي مال لفعلت بعمل فلان. قال: هي نيته فوزرهما فيه سواء". وقال أيضا: حدثنا وَكِيع، حدثنا الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن أبي كبشة الأنماري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل به في ماله ينفقه في حقه، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فهو يقول: لو كان لي مثل مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فهما في الأجر سواء؛ ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يخبط فيه ينفقه في غير حقه، ورجل لم يؤته الله مالا ولا علما فهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فهما في الوزر سواء". إسناد صحيح.

ويقول الإمام القرطبي:

باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه

فأول ذلك أن يخلص في طلبه لله عز وجل كما ذكرنا، وأن يأخذ نفسه بقراءة القرآن في ليله ونهاره، في الصلاة أو في غير الصلاة، لئلا ينساه. روى مسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت، **وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإذا لم يقم به نسيه**". وينبغي له أن يكون لله حامدا ولنعمه شاكرا وله ذاكرا وعليه متوكلا وبه مستعينا وإليه راغبا وبه معتصما وللموت ذاكرا وله مستعدا، وينبغي له أن يكون خائفا من ذنبه راجيا عفو ربه، ويكون الخوف في صحته أغلب عليه إذ لا يعلم بما يُختم له، ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى في نفسه لحسن الظن بالله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن"، أي أنه يرحمه ويغفر له. وينبغي له أن يكون عالما بأهل زمانه، متحفظا من سلطانه، ساعيا في خلاص نفسه ونجاة مهجته، مقدما بين يديه ما يقدر عليه من عرض دنياه، مجاهدا لنفسه في ذلك ما استطاع. وينبغي له أن يكون أهم أموره عنده الورع في دينه، واستعمال تقوى الله ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه.

وقال عبدالله بن عمرو: "لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو ويصفح لحق القرآن، لأن في جوفه كلام الله تعالى، وينبغي له أن يأخذ نفسه بالتصاون عن طرق الشبهات، ويُقِل الضحك والكلام في مجالس القرآن وغيرها بما لا فائدة فيه، ويأخذ نفسه بالحلم والوقار، وينبغي له أن يتواضع للفقراء ويتجنب التكبر والإعجاب، ويتجافى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة، ويترك الجدال والمراء، ويأخذ نفسه بالرفق والأدب. وينبغي له أن يكون ممن يُؤمَن شره، ويُرجى خيره، ويُسلَم من ضره، وألا يسمع ممن نم عنده، ويصاحب من يعاونه على الخير، ويدله على الصدق ومكارم الأخلاق، ويزينه ولا يشينه. وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن الله مراده وما فُرض عليه، فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو، فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟ وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلو ولا يدريه، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل

الحمار يحمل أسفارا. وينبغي له أن يعرف المكي من المدني ليفرق بذلك بين ماخاطب الله به عباده في أول الإسلام وما ندبهم إليه في آخر الإسلام، وما افترض الله في أول الإسلام وما زاد عليه من الفرائض في آخره، فالمدني هو محمود للمكي في أكثر القرآن، ولا يمكن أن ينسخ المكي المدني، لأن المنسوخ هو المتقدم في النزول قبل محمود له. ومن كماله أن يعرف الإعراب والغريب، فذلك مما يسهل عليه معرفة ما يقرأ ويزيل عنه الشك فيما يتلو". وقد قال الضحاك في قوله تعالى: {وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ}، قال: **حق على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيها**.

باب ما جاء في حامل القرآن ومن هو وفيمن عاداه

قال أبو عمر: روى من وجوه فيها لين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من تعظيم جلال الله إكرام ثلاثة الإمام المقسط وذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه"، وقال أبو عمر: "وحملة القرآن هم العالمون بأحكامه وحلاله وحرامه والعاملون بما فيه". وروي أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"القرآن أفضل من كل شيء، فمن وقر القرآن فقد وقر الله، ومن استخف بالقرآن استخف بحق الله تعالى، حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله المعظمون كلام الله، الملبسون نور الله، فمن والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد استخف بحق الله تعالى".

خيركم من تعلم القرآن وعلمه

يقول الإمام ابن كثير:

حدثنا حجاج بن مِنْهال، حدثنا شعبة، أخبرني علقمة بن مَرْثَد، سمعت سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن، عن عثمان بن عفان، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه". وحدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن علقمة بن مرثد، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عثمان بن عفان، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه". وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة من طرقٍ عن سفيان، عن علقمة، عن أبي عبد الرحمن. والغرض أنه عليه الصلاة والسلام قال: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"، وهذه من صفات المؤمنين المتبعين للرسل، وهم الكُمل في أنفسهم، المكملون لغيرهم، وذلك جمع بين النفع القاصر والمتعدي، وهذا بخلاف صفة الكفار الجبارين الذين لا ينفعون، ولا يتركون أحدا ممن أمكنهم أن ينتفع، كما قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ}[النحل: ٨٨]، وكما قال تعالى: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ}[الأنعام: ٢٦]، في أصح قولي المفسرين في هذا، وهو أنهم ينهون الناس عن اتباع القرآن مع نأيهم وبعدهم عنه، فجمعوا بين التكذيب والصد، كما قال تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا}[الأنعام: ١٥٧]، فهذا شأن الكفار، كما أن شأن خيار الأبرار أن يُكْمِل في نفسه وأن يسعى في تكميل غيره كما قال عليه السلام:"خيركم من تعلم القرآن وعلمه" ، وكما قال الله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[فصلت: ٣٣]، فجمع بين الدعوة إلى الله سواء كان بالأذان أو بغيره من أنواع الدعوة من تعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك، مما يُبتغى به وجه الله، وعمل هو في نفسه صالحا، وقال قولا صالحا،

فلا أحد أحسن حالا من هذا. قال البخاري رحمه الله: حدثنا عمرو بن عون، حدثنا حماد عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: "أتت النبي صلى الله عليه وسلم امرأة فقالت: إنها قد وهبت نفسها لله ورسوله، فقال: "ما لي في النساء من حاجة". فقال رجل: زوّجنيها، قال: "أعطها ثوبًا"، قال: لا أجد، قال: أعطها ولو خاتما من حديد، فاعتل له، فقال: ما معك من القرآن. قال: كذا وكذا. فقال: قد زوجتكها بما معك من القرآن". وهذا الحديث متفق على إخراجه من طرق عديدة ، والغرض منه أن الذي قصده البخاري أن هذا الرجل تعلم الذي تعلمه من القرآن، وأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلمه تلك المرأة، ويكون ذلك صداقا لها على ذلك، وهذا فيه نزاع بين العلماء، وهل يجوز أن يُجعل مثل هذا صداقًا؟ أو هل يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن؟ وهل هذا كان خاصًا بذلك الرجل؟ وما معنى قوله عليه الصلاة والسلام: "زوجتكها بما معك من القرآن"؟ أبسبب ما معك من القرآن؟ كما قاله أحمد بن حنبل: نكرمك بذلك أو بعوض ما معك، وهذا أقوى، لقوله في صحيح مسلم: "فعلمها"، وهذا هو الذي أراده البخاري هاهنا، والله المستعان.

ويقول الإمام القرطبي:

باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه، وثواب من قرأ القرآن مُعْربا

قال أبو بكر بن الأنباري: جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وتابعيهم رضوان الله عليهم – من تفضيل إعراب القرآن والحض على تعليمه وذم اللحن وكراهيته– ما وجب به على قراء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلمه. من ذلك ما حدثنا يحي بن سليمان الضبي، قال: حدثنا محمد –يعني ابن سعيد– قال حدثنا أبو معاوية عن عبدالله بن سعيد المقبري، عن أبيه، عن جده، عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه". حدثني أبي قال: حدثنا إبراهيم بن الهيثم: قال حدثنا آدم، يعني ابن أبي إياس، قال: حدثنا أبو الطيب المرزوي قال: حدثنا عبد العزيز بن أبي رواد، عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ القرآن فلم يعربه وُكِل به ملك يكتب له كما أنزل بكل حرف عشر حسنات، فإن أعرب بعضه وكل به ملكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة، فإن أعربه وكل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة". وروى جويبر عن الضحاك قال: قال عبدالله بن مسعود: جودوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات وأعربوه فإنه عربي والله يحب أن يُعرب به. وعن مجاهد عن ابن عمر قال: أعربوا القرآن. وعن محمد بن عبد الرحمن بن زيد قال: قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما: "لبعض إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ حروفه". وعن الشعبي قال: قال عمر رحمه الله: "من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد". وقال مكحول: بلغني أن من قرأ بإعراب كان له من الأجر ضعفان ممن قرأ بغير إعراب. وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحبوا العرب لثلاث، لأني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي". وروى سفيان عن أبي حمزة قال: قيل للحسن: إن لنا إماما يُلحِن، قال: أخروه. وعن ابن أبي ملكية قال: قدم أعرابي في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: من يقرئني مما أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال: فأقرأه رجل براءة، فقال إن الله بريء من المشركين ورسوله بالجر، فقال الأعرابي أو قد برئ الله من رسوله، فإن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه. فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه، فقال: يا أعرابي أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة

ولا علم لي بالقرآن فسألت من يقرئني فأقرأني هذا سورة براءة، فقال إن الله بريء من المشركين ورسوله، فقلت أو قد بريء الله من رسوله، إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه. فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابي. قال: فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ قال: {إن الله بريء من المشرِكين ورسولُه}، فقال الأعرابي وأنا والله أبرأ مما بريء الله ورسوله منه. فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألا يقريء الناس إلا عالم باللغة وأمر أبا الأسود فوضع النحو.

وعن علي بن الجعد قال سمعت شعبة يقول: مثل صاحب الحديث الذي لا يعرف العربية مثل الحمار عليه مخلاة لا علف فيها. وقال حماد بن سلمة من طلب الحديث ولم يتعلم النحو –أو قال العربية– فهو كمثل الحمار تعلق عليه مخلاة ليس فيها شعير. قال ابن عطية: **إعراب القرآن أصل في الشريعة لأن بذلك تقوم معانيه التي هي في الشرع**.

وباب كيفية التعلم والفقه لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وما جاء أنه سهل على من تقدم العمل به دون حفظه

ذكر أبو عمرو الداني في كتاب البيان له بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فيعلمنا القرآن والعمل جميعا. وذكر عبد الرزاق عن معمر عن عطاء ابن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها. وفي موطأ مالك أنه بلغه أن عبد الله ابن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها. وذكر أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الحافظ في كتابه المسمى أسماء من روي عن مالك عن مرداس بن محمد أبي بلال الأشعري قال: حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر قال: تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة فلما ختمها نحر جزورا. وذكر أبو بكر الأنباري حدثني محمد بن شهريار حدثنا حسين بن الأسود حدثنا عبيد الله بن موسى عن زياد بن أبي مسلم أبي عمرو عن زياد بن مخراق قال: قال عبدالله بن مسعود: **إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن وسهل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به**. حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا يوسف بن موسى حدثنا الفضل بن دكين حدثنا إسماعيل ابن إبراهيم بن المهاجر عن أبيه عن مجاهد عن ابن عمر قال: **كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به**. حدثني حسن بن عبد الوهاب أبو محمد بن أبي العنبر حدثنا أبو بكر بن حماد المقريء قال: سمعت خلف بن هشام البزاز يقول: ما أظن القرآن إلا همام في أيدينا، وذلك إنا روينا أن عمر بن الخطاب حفظ البقرة في بضع عشرة سنة فلما حفظها نحر جزورا شكرا لله، وإن الغلام في دهرنا هذا يجلس بين يدي فيقرأ ثلث القرآن لا يُسقط منه حرفا، فما أحسب القرآن إلا عارية[١٠] في أيدينا. وقال معاذ بن جبل: اعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعلموا.

[١٠] العارية: ما تعطيه غيرك على أن يعيده إليك (المعجم الوجيز)

تلاوة القرآن

القراءة عن ظهر قلب

يقول الإمام ابن كثير:

إنما أفرد البخاري في هذه الترجمة حديث أبي حازم عن سهل بن سعد، الحديث الذي تقدم الآن، وفيه أنه عليه السلام قال لرجل: "فما معك من القرآن ؟". قال: معي سورة كذا وكذا ، لسور عددها. قال: "أتقرؤهن عن ظهر قلبك؟". قال: نعم. قال : "اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن". وهذه الترجمة من البخاري رحمه الله مشعرة بأن قراءة القرآن عن ظهر قلب أفضل، والله أعلم. **ولكن الذي صرح به كثيرون من العلماء** أن قراءة القرآن من المصحف أفضل لأنه يشتمل على التلاوة والنظر في المصحف وهو عبادة، كما صرح به غير واحد من السلف، وكرهوا أن يمضي على الرجل يوم لا ينظر في مصحفه ، واستدلوا على فضيلة التلاوة في المصحف بما رواه الإمام العلم أبو عبيد في كتاب فضائل القرآن، حيث قال: حدثنا نعيم بن حماد، عن بقية بن الوليد، عن معاوية بن يحيى، عن سليم بن مسلم، عن عبد الله بن عبد الرحمن، عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فضل قراءة القرآن نظرا على من يقرأه ظهرا، كفضل الفريضة على النافلة"[١١]، **وهذا الإسناد ضعيف**، فإن معاوية بن يحيى هو الصدفي أو الأطرابلسي، وأيهما كان فهو ضعيف. وقال الثوري عن عاصم ، عن زر ، عن ابن مسعود قال: أديموا النظر في المصحف. وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن ماهك، عن ابن عباس، عن عمر: أنه كان إذا دخل بيته نشر المصحف فقرأ فيه. وقال حماد أيضا: عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن ابن مسعود: أنه كان إذا اجتمع إليه إخوانه نشروا المصحف، فقرؤوا ، وفسر لهم. إسناد صحيح. وقال حماد بن سلمة: عن حجاج بن أرطاة، عن ثوير بن أبي فاختة، عن ابن عمر قال: إذا رجع أحدكم من سوقه فلينشر المصحف وليقرأ[١٢]. وقال الأعمش عن خَيْثَمة: دخلت على ابن عمر وهو يقرأ في المصحف فقال: هذا جزئي الذي أقرأ به الليلة. فهذه الآثار تدل على أن هذا أمر مطلوب لئلا يُعطل المصحف فلا يُقرأ منه، ولعله قد يقع لبعض الحفظة نسيان فيتذكر منه، أو تحريف كلمة أو آية أو تقديم أو تأخير، فالاستثبات أولى، والرجوع إلى المصحف أثبت من أفواه الرجال، فأما تلقين القرآن فمن فم الملقن أحسن، لأن الكتابة لا تدل على كمال الأداء، كما أن المشاهد من كثير ممن يحفظ من الكتابة فقط يكثر تصحيفه وغلطه، وإذا أدى الحال إلى هذا مُنع منه إذا وجد شيخا يوقفه على لفظ القرآن ، فأما عند العجز عمن يلقن فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها، فيجوز عند الضرورة ما لا يجوز عند الرفاهية، فإذا قرأ في المصحف- والحالة هذه- فلا حرج عليه ولو فرض أنه قد يحرف بعض الكلمات عن لفظها على لغته ولفظه. وقال بعض العلماء: المدار في هذه المسألة على الخشوع في القراءة، فإن كان الخشوع عند القراءة على ظهر القلب فهو أفضل، وإن كان عند النظر في المصحف فهو أفضل، فإن استويا فالقراءة نظرا أولى، لأنها أثبت وتمتاز بالنظر في المصحف. قال الشيخ أبو زكريا النووي رحمه الله في التبيان: والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمول على هذا التفصيل.

---

[١١] من المعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي إلى رحمة الله والقرآن غير مجموع في مصحف واحد منسوخ في مصاحف متعددة بحيث يقرأه الناس نظرا، فضلا عن انتشار الأمية بين المسلمين في ذلك الحين، فكيف يحضهم على فعل شيء متعذر القيام به (المصنف)

[١٢] هذا من عجائب المرويات، فلم يكن القرآن منسوخا في مصاحف على نطاق واسع، ولم تكن الدراية بالقراءة والكتابة منتشرة بين المسلمين في وقت ابن عمر بحيث يعود المرء من عمله فينشر مصحفه ويقرأ فيه (المصنف)

تنبيه: إن كان البخاري رحمه الله أراد بذكر حديث سهل للدلالة على أن تلاوة القرآن عن ظهر قلب أفضل منها في المصحف، ففيه نظر، لأنها قضية عين، فيحتمل أن ذلك الرجل كان لا يحسن الكتابة ويعلم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم منه، فلا يدل على أن التلاوة عن ظهر قلب أفضل مطلقا في حق من يحسن ومن لا يحسن، إذ لو دل هذا لكان ذكر حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلاوته عن ظهر قلب– لأنه أمي لا يدري الكتابة– أولى من ذكر هذا الحديث بمفرده. الثاني: أن سياق الحديث إنما هو لأجل استثبات أنه يحفظ تلك السور عن ظهر قلب ليمكنه تعليمها لزوجته، وليس المراد هاهنا أن هذا أفضل من التلاوة نظرا ولا عدمه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الترتيل في القراءة

يقول الإمام ابن كثير:

وقول الله عز وجل: {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا} [المزمل: ٤]، وقوله: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ} [الإسراء: ١٠٦]، يُكره أن يهذ كهذ الشعر، يفرق: يفصل، قال ابن عباس: {فَرَقْنَاهُ} فصلناه. حدثنا أبو النعمان، حدثنا مهدي بن ميمون، حدثنا واصل [وهو ابن حيان الأحدب] عن أبي وائل، عن عبد الله قال: غدونا على عبد الله، فقال رجل: قرأت المفصل البارحة، فقال: هذا كهذِّ الشعر، إنا قد سمعنا القراءة، وإني لأحفظ القراءات التي كان يقرأ بهن النبي صلى الله عليه وسلم ثمان عشرة سورة من المفصل، وسورتين من آل حم. وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهِيعة، عن الحارث بن يزيد، عن زياد بن نعيم، عن مسلم بن مِخْراق، عن عائشة أنه ذكر لها أن ناسا يقرؤون القرآن في الليل مرة أو مرتين، فقالت: أولئك قرؤوا ولم يقرؤوا، كنت أقوم مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة التمام، فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء، فلا يمر بآية فيها تخوف إلا دعا الله واستعاذ، ولا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله ورغب إليه.

الحديث الثاني: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} [القيامة: ١٦]: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل جبريل بالوحي، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه. وذكر تمام الحديث كما سيأتي ، وهو متفق عليه ، وفيه والذي قبله دليل على استحباب ترتيل القراءة والترسل فيها من غير هَذْرَمة ولا سرعة مفرطة، بل بتأمل وتفكر، قال الله تعالى: {كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} [ص: ٢٩]. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن سفيان، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وسلم:"يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْقَ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها". وقال أبو عبيد: حدثنا جرير، عن مغيرة، عن إبراهيم قال: قرأ علقمة على عبد الله، فكأنه عجل، فقال عبد الله: فداك أبي وأمي، رتل فإنه زين القرآن. قال: وكان علقمة حسن الصوت بالقرآن. وحدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن أبي جمرة قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة وإني أقرأ القرآن في ثلاث، فقال: **لأن أقرأ البقرة في ليلة فأدبرها وأرتلها أحب إليَّ من أن أقرأ كما تقول**. وحدثنا حجاج، عن شعبة وحماد بن سلمة، عن أبي جمرة، عن ابن عباس نحو ذلك، إلا أن في حديث حماد: أحب إليّ من أن أقرأ القرآن أجمع هذرمة.

مد القراءة

يقول الإمام ابن كثير:

حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا جرير بن حازم الأزدي، حدثنا قتادة قال: سألت أنس بن مالك عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فقال: كان يمد مدا. وهكذا رواه أهل السنن، من حديث جرير بن حازم به. وحدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا همام، عن قتادة قال: سئل أنس بن مالك: كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال: كانت مدًا، ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم. يمد بسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم. انفرد به البخاري من هذا الوجه، وفي معناه الحديث الذي رواه الإمام أبو عبيد: حدثنا أحمد بن عثمان، عن عبد الله بن المبارك، عن الليث بن سعد، عن ابن أبي مُلَيْكَة، عن يعلى بن مَملك، عن أم سلمة: أنها نعتت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم قراءة مفسرة حرفًا حرفًا.

في كم يُقرأ القرآن وقول الله تعالى:{فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}[المزمل: ٢٠].

يقول الإمام ابن كثير:

حدثنا علي، حدثنا سفيان، قال: قال لي ابن شبرمة: نظرت كم يكفي الرجل من القرآن فلم أجد سورة أقل من ثلاث آيات. فقلت: لا ينبغي لأحد أن يقرأ أقل من ثلاث آيات. قال سفيان: أخبرنا منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن يزيد، أخبره علقمة عن أبي مسعود، فلقيته وهو يطوف بالبيت، فذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه. وقد جمع البخاري فيما بين عبد الرحمن بن يزيد وعلقمة عن أبي مسعود وهو صحيح؛ لأن عبد الرحمن سمعه أولا من علقمة، ثم لقي أبا مسعود وهو يطوف فسمعه منه، وعليّ هذا هو ابن المديني وشيخه هو سفيان بن عيينة، وما قاله عبد الله بن شبرمة- فقيه الكوفة في زمانه- استنباط حسن، وقد جاء في حديث في السنن:"لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب وثلاث آيات" ولكن هذا الحديث- أعني حديث أبي مسعود- أصح وأشهر وأخص.

والحديث الثاني أظهر في المناسبة وهو قوله: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عَوَانة، عن مغيرة، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، قال: أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كِنّتَه فيسألها عن بعلها فتقول: نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشا، ولم يفتش لنا كنفا منذ أتيناه، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "ألقني به"، فلقيته بعد، فقال: "كيف تصوم ؟". قلت: كل يوم. قال: "وكيف تختم ؟". قلت: كل ليلة. قال: "صم كل شهر ثلاثة، واقرأ القرآن في كل شهر". قال: قلت: إني أطيق أكثر من ذلك. قال: "صم ثلاثة أيام في الجمعة". قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: "أفطر يومين وصوم يوما". قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: "صم أفضل الصوم صوم داود، صيام يوم وإفطار يوم، واقرأ في كل سبع ليال مرةً" ، فليتني قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم! وذلك أني كبرت وضعفت، فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار والذي يقرأ يعرضه بالنهار ليكون أخف عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياما وأحصى وصام مثلهن، كراهية أن يترك شيئا فارق عليه النبي صلى الله عليه وسلم. وقال بعضهم: في ثلاث وفي خمس وأكثرهم على سبع .

ثم روى البخاري ومسلم وأبو داود من حديث يحيى بن أبي كثير ، عن محمد بن عبد الرحمن – مولى بني زهرة– عن أبي سلمة: قال: وأحسبني قال: سمعت أنا من أبي سلمة، عن عبد الله بن عمرو قال:"قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: "اقرأ القرآن في شهر". قلت: إني أجد قوة. قال: "فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك". **فهذا السياق ظاهره يقتضي المنع من قراءة القرآن في أقل من سبع**، وهكذا الحديث الذي رواه أبو عبيد: حدثنا حجاج وعمر بن طارق ويحيى بن بكير، كلهم عن ابن لَهِيعة، عن حبان بن واسع، عن أبيه، عن قيس بن أبي صعصعة أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم:"يا رسول الله، في كم أقرأ القرآن؟ فقال: "**في كل خمس عشرة**". قال: إني أجد في أقوى من ذلك، قال:"ففي كل جمعة". وحدثنا حجاج عن شعبة، عن محمد بن ذكوان– رجل من أهل الكوفة– قال: سمعت عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود يقول: كان عبد الله بن مسعود يقرأ القرآن في غير رمضان من الجمعة إلى الجمعة. وعن حجاج، عن شعبة، عن أيوب: سمعت أبا قِلابة، عن أبي المهلب قال: كان أبيّ بن كعب يختم القرآن في كل ثمان. وحدثنا علي بن عاصم ، عن خالد ، عن أبي قلابة قال: كان أبيّ بن كعب يختم القرآن في كل ثمان. وكان تميم الداري يختمه في كل سبع، وحدثنا هُشَيْم، عن الأعمش، عن إبراهيم: أنه كان يختم القرآن في كل سبع. وحدثنا جرير، عن منصور، عن إبراهيم قال: كان الأسود يختم القرآن في كل ست، وكان علقمة يختمه في كل خمس. فلو تركنا ومجرد هذا لكان الأمر في ذلك جليا، ولكن دلت أحاديث أخرجوها على جواز قراءته فيما دون ذلك، كما رواه الإمام أحمد في مسنده: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا حبان ابن واسع، عن أبيه، عن سعد بن المنذر الأنصاري؛ أنه قال: يا رسول الله، أقرأ القرآن في ثلاث؟ قال:"نعم". قال فكان يقرؤه حتى توفي. وهذا إسناد جيد قوي حسن، فإن حسن بن موسى الأشيب ثقة متفق على جلالته روى له الجماعة وابن لَهِيعة إنما يُخشى من تدليسه وسوء حفظه، وقد صرح هاهنا بالسماع، وهو من الأئمة العلماء بالديار المصرية في زمانه، وشيخه حبان بن واسع بن حبان وأبوه، كلاهما من رجال مسلم، والصحابي لم يخرج له أحد من أهل الكتب الستة، وهذا على شرط كثير منهم، والله أعلم. وقد رواه أبو عبيد، رحمه الله، عن ابن كثير عن ابن لَهِيعة، عن حبان بن واسع، عن أبيه، عن سعد بن المنذر الأنصاري أنه قال:"يا رسول الله، أقرأ القرآن في ثلاث؟ **قال:"نعم، إن استطعت"**. قال: فكان يقرؤه كذلك حتى توفي.

حديث آخر: قال أبو عبيد: حدثنا يزيد، عن همام، عن قتادة، عن يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث**". وهكذا أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة من حديث قتادة به. وقال الترمذي: حسن صحيح. حديث آخر: قال أبو عبيد: حدثنا يوسف بن الغرق، عن الطيب بن سليمان، حدثتنا عمرة بنت عبد الرحمن: أنها سمعت عائشة تقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يختم القرآن في أقل من ثلاث. هذا حديث غريب وفيه ضعف، فإن الطيب بن سليمان هذا بصري، ضعفه الدارقطني، وليس هو بذاك المشهور، والله أعلم. **وقد كره غير واحد من السلف قراءة القرآن في أقل من ثلاث**، كما هو مذهب أبي عبيد وإسحاق وابن راهويه وغيرهما من الخلف؛ أيضا، قال أبو عبيد: حدثنا يزيد، عن هشام بن حسان، عن حفصة، عن أبي العالية، عن معاذ بن جبل أنه كان يكره أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث. صحيح. وحدثنا يزيد، عن سفيان، عن علي بن بَذِيمة، عن أبي عبيدة قال: [قال] عبد الله: من قرأ القرآن في أقل من ثلاث فهو راجز. وحدثنا حجاج، عن شعبة، عن محمد بن ذَكْوَان، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، أنه كان يقرأ القرآن في رمضان في ثلاث. إسناده

صحيح. وفي المسند عن عبد الرحمن بن شبل مرفوعا: "اقرؤوا القرآن، ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به". فقوله: "لا تغلوا فيه" أي: لا تبالغوا في تلاوته بسرعة في أقصر مدة، فإن ذلك ينافي التدبر غالبا؛ ولهذا قابله بقوله: "ولا تجفوا عنه" أي: لا تتركوا تلاوته.

وقد ترخص جماعة من السلف في تلاوة القرآن في أقل من ذلك، منهم أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه. قال أبو عبيد: حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرني ابن خَصيفة، عن السائب بن يزيد: أن رجلا سأل عبد الرحمن بن عثمان التيمي عن صلاة طلحة بن عبيد فقال: إن شئت أخبرتك عن صلاة عثمان، رضي الله عنه، فقال: نعم. قال: قلت: لأعلين الليلة على الحجر، فقمت، فلما قمت إذا أنا برجل مقنع يزحمني، فنظرت فإذا عثمان بن عفان، فتأخرت عنه، فصلى فإذا هو يسجد سجود القرآن، حتى إذا قلت: هذه هوادي الفجر، أوتر بركعة لم يصل غيرها. وهذا إسناد صحيح. قال وحدثنا هُشَيْم، عن منصور، عن ابن سيرين قال: قالت نائلة بنت الفرافصة الكلبية حيث دخلوا على عثمان ليقتلوه: إن يقتلوه أو يدعوه، فقد كان يحيي الليل كله بركعة يجمع فيها القرآن[١٣]. وهذا حسن أيضا. وقال- أيضا- : حدثنا أبو معاوية، عن عاصم بن سليمان، عن ابن سيرين: إن تميما الداري قرأ القرآن في ركعة. حدثنا حجاج بن شعبة، عن حماد، عن سعيد بن جبير: أنه قال: قرأت القرآن في ركعة في البيت- يعني الكعبة. وحدثنا جرير، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة أنه قرأ القرآن في ليلة، طاف بالبيت أسبوعا، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالطول، ثم طاف بالبيت أسبوعا، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالمئين، ثم طاف أسبوعا، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالمثاني، ثم طاف بالبيت أسبوعا ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بقية القرآن. وهذه كلها أسانيد صحيحة، **ومن أغرب ما هاهنا** ما رواه أبو عبيد: حدثنا سعيد بن عُفَيْر، عن بكر بن مضر، أن سليم بن عتر التجيبي كان يختم القرآن في ليله ثلاث مرات، ويجامع ثلاث مرات. قال: فلما مات قالت امرأته: رحمك الله، إن كنت لترضى ربك وترضى أهلك، قالوا: وكيف ذلك؟ قالت: كان يقوم من الليل فيختم القرآن، ثم يلم بأهله ثم يغتسل، ويعود فيقرأ حتى يختم ثم يلم بأهله، ثم يغتسل، ويعود فيقرأ حتى يختم، ثم يلم بأهله ثم يغتسل، ويخرج إلى صلاة الصبح[١٤]. قلت: كان سليم بن عتر تابعيا جليلا ثقة نبيلا وكان قاضيا بمصر أيام معاوية وقاصّها، ثم قال أبو حاتم: رُوي عن أبي الدرداء، وعنه ابن زحر، ثم قال: حدثني محمد بن عوف، عن أبي صالح كاتب الليث، حدثني حرملة بن عمران، عن كعب بن علقمة قال: كان سليم بن عتر من خير التابعين. وذكره ابن يونس في تاريخ مصر. وقد روى ابن أبي داود عن مجاهد أنه كان يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء. وعن منصور قال : كان علي الأزدي يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء كل ليلة من رمضان. وعن إبراهيم بن سعد قال: كان أبي يحتبي فما يحل حبوته حتى يختم القرآن. قلت: وروي عن منصور بن زاذان: أنه كان يختم فيما بين الظهر والعصر، ويختم أخرى فيما بين المغرب والعشاء ، وكانوا يؤخرونها قليلا. وعن الإمام الشافعي، رحمه الله أنه كان يختم في اليوم والليلة من شهر رمضان ختمتين، وفي غيره ختمة. وعن أبي عبد

---

[١٣] تستغرق قراءة الجزء الواحد من القرآن قراءة سريعة ثلث ساعة على الأقل، أي أن قراءة القرآن كله مرة واحدة قد تستغرق عشر ساعات، فكيف يتيسر ذلك في ركعة واحدة، والله أعلم (المصنف)

[١٤] أوردنا هذه الروايات التي لا يصدقها عقل كأمثلة عما تذخر به كتب التراث من الاهتمام بالسند قبل المتن وهو ما يجعلها عرضة لانتقاد المنتقدين، فلا يعقل أن يفعل هذه التابعي الجليل كل ذلك ما بين العشاء وصلاة الصبح، ولا يعقل أن يختم تابعي آخر القرآن في اليوم أربع مرات حتى ولو لم يكن لديه شيئ آخر يفعله، فضلا عن أن معنى ذلك أن قراءة الجزء الواحد تستغرق منه اثنتا عشرة دقيقة، وهو ما لا يعقل أن يفعله تابعي يخشى الله، والأمر لله من قبل ومن بعد (المصنف)

الله البخاري صاحب الصحيح: أنه كان يختم في الليلة ويومها من رمضان ختمة. ومن غريب هذا وبديعه ما ذكره الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي الصوفي قال: سمعت الشيخ أبا عثمان المغربي يقول: كان ابن الكاتب يختم بالنهار أربع ختمات، وبالليل أربع ختمات، **وهذا نادر جدا. فهذا وأمثالة من الصحيح عن السلف محمول إما على أنه ما بلغهم في ذلك حديث مما تقدم، أو أنهم كانوا يفهمون ويتفكرون فيما يقرؤونه مع هذه السرعة، والله أعلم.**

قال الشيخ أبو زكريا النووي في كتابه التبيان بعد ذكر طرف مما تقدم: "والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولا بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهَذْرَمة".

قال البخاري: "اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم" حدثنا أبو النعمان محمد بن الفضل عارم، حدثنا حماد بن زيد، عن أبي عمران الجوني، عن جندب بن عبد الله، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقوموا [عنه].

ومعنى الحديث أنه، عليه السلام، أرشد وحض أمته على تلاوة القرآن إذا كانت القلوب مجتمعة على تلاوته، متفكرة فيه، متدبرة له، لا في حال شغلها وملالها، فإنه لا يحصل المقصود من التلاوة بذلك، كما ثبت في الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام: "اكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا". وقال: "أحب الأعمال إلى الله ما داوم عليه صاحبه وإن قل" ، وفي اللفظ الآخر: "أحب الأعمال إلى الله أدومها [وإن قل] ".

ويقول الإمام القرطبي:

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى، وما يكره منها وما يحرم، واختلاف الناس في ذلك

روى البُخَاري عن قتادة قال: سألت أَنَساً عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "كان يَمَدّ مَدّاً [إذا] قرأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، يمدّ بسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم. وروى الترمذيّ عن أم سلمة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقَطع قراءته، يقول:{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ثم يقف، {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} ثم يقف، وكان يقرؤها {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} قال: حديث غريب وأخرجه أبو داود بنحوه. ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أحسن الناس صوتا من إذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى". وروي عن زياد النميري أنه جاء مع القراء إلى أنس بن مالك فقيل له: اقرأ فرفع صوته وطرب، وكان رفيع الصوت، فكشف أنس عن وجهه، وكان على وجهه خرقة سوداء فقال: يا هذا، ما هكذا كانوا يفعلون! وكان إذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه. وروي عن قيس بن عباد أنه قال كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون رفع الصوت عند الذِكر. وممن روى عنه كراهة رفع الصوت عند قراءة القرآن سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والقاسم بن محمد والحسن وابن سيرين والنخعي وغيرهم، وكرهه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل، كلهم كره رفع الصوت بالقرآن والتطريب فيه. رُوى عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يؤم الناس فطرَّب في قراءته، فأرسل إليه سعيد يقول: أصلحك الله! إن الأئمة لا تقرأ هكذا، فترك عمر التطريب بعد. وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتطريب به، وذلك لأنه إذا

حَسّن الصوتَ به كان أوقع في النفوس وأسمع في القلوب، واحتجوا بقوله عليه السلام: "زينوا القرآن بأصواتكم" رواه البراء بن عازب، أخرجه أبو داود والنسائي، وبقوله عليه السلام: "ليس منّا من لم يتغن بالقرآن"، أخرجه مسلم، وبقول أبي موسى للنبي صلى الله عليه وسلم: "لو أعلم أنك تستمع لقراءتي لحبرته لك تحبيرا"، وبما رواه عبد الله بن مغفل قال: "قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح في مسير له سورة الفتح على راحلته فرجع في قراءته". وممن ذهب إلى هذا أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وابن المبارك والنضر بن شُميل، وهو اختيار أبي جعفر الطبري وأبي الحسن بن بطال والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم. قلت: القول الأول أصح لما ذكرناه. وأما ما احتجوا به من الحديث الأوّل فليس على ظاهره، وإنما هو باب المقلوب؛ أي **زينوا أصواتكم بالقرآن**. قال الخطابي: وكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث: زينوا أصواتكم بالقرآن، وقالوا هو من باب المقلوب؛ قال: ورواه معمر عن منصور عن طلحة، فقدم الأصوات على القرآن، وهو الصحيح. قال الخطابي: ورواه طلحة عن عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"زينوا القرآن بأصواتكم"، أي الهجوا بقراءته واشغلوا به أصواتكم واتخذوه شعارا وزينة؛ وقيل: معناه الحض على قراءة القرآن والدؤوب عليه. وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:"زينوا أصواتكم بالقرآن". وروي عن عمر أنه قال:"حسنوا أصواتكم بالقرآن". قلت: وإلى هذا المعنى يرجع قوله عليه السلام:"ليس منا من لم يتغن بالقرآن"، أي ليس منا من لم يحسن صوته بالقرآن. كذلك تأوله عبدالله بن أبي مليكة قال عبد الجبار ابن الورد: سمعت ابن أبي مليكة يقول: قال عبدالله بن أبي يزيد: مر بنا أبو لبابة فاتبعناه حتى دخل بيته، فإذا رجل رث الهيئة، فسمعته يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ليس منا من لم يتغن بالقرآن". قال فقلت لابن أبي ملكية: يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسنه ما استطاع. ذكره أبو داود، وإليه يرجع أيضا قول أبي موسى للنبي صلى الله عليه وسلم: "إني لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحسنت صوتي بالقرآن وزينته ورتلته". وهذا يدل على أنه كان يهذ في قراءته مع حسن الصوت الذي جُبِل عليه. والتحبير: التزيين والتحسين، فلو علم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمعه لمد في قراءته ورتلها، كما كان يقرأ على النبي صلى الله عليه وسلم، فيكون ذلك زيادة في حسن صورته بالقراءة ومعاذ الله أن يتأول على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول: إن القرآن يزين بالأصوات أو بغيرها؛ فمن تأول هذا فقد وقع أمرا عظيما أن يحوج القرآن إلى من يزينه، وهو النور والضياء والزين الأعلى لمن ألبس بهجته واستنار بضيائه. وقد قيل: إن الأمر بالتزيين اكتساب القراءات وتزيينها بأصواتنا وتقدير ذلك، أي زينوا القراءة بأصواتكم؛ فيكون القرآن بمعنى القراءة، كما قال تعالى: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} أي قراءة الفجر وقوله:{فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ}، أي قراءته.

وقد قيل إن معنى يتغنى به يستغنى به من الاستغناء الذي هو ضد الافتقار لا من الغناء، يقال تغنيت وتغانيت بمعنى استغنيت. وفي "الصحاح": تغنى الرجل بمعنى استغنى وأغناه الله، وتغانوا أي استغنى بعضهم عن بعض، وإلى هذا التأويل ذهب سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح ورواه سفيان عن سعد بن أبي وقاص. وقد روي عن سفيان أيضا وجه آخر ذكره إسحاق بن راهوية: أي يستغني به عما سواه من الأحاديث، وإلى هذا التأويل ذهب البخاري محمد بن إسماعيل لإتباعه الترجمة بقوله تعالى:{أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ}، والمراد الاستغناء بالقرآن عن علم أخبار الأمم، قاله أهل التأويل.

التأويل الخامس:. ما تأوّله من استدل به على الترجيع والتطريب، فذكر عمر بن شبة قال: ذكرت لأبي عاصم النبيل تأويل ابن عيينة في قوله "يتغنى" يستغنى، فقال: لم يصنع ابن عيينة شيئا. وسئل الشافعي عن تأويل ابن عيينة فقال: نحن أعلم بهذا، لو أراد النبي صلى الله عليه وسلم الاستغناء لقال: من لم يستغن، ولكن لما قال: "يتغن" علمنا انه أراد التغني. قال الطبري: المعروف عندنا في "كلام العرب" أن التغني إنما هو الغناء الذي هو حسن الصوت بالترجيع.

قال: وأما ادعاء الزاعم أن تغنيت بمعنى استغنيت فليس في "كلام العرب وأشعارها"، ولا نعلم أحدا من أهل العلم قاله، وأما احتجاجه بقول الأعشى :

وكنت امرا زمنا بالعراق ... عفيف المناخ طويل التغن

وزعم أنه أراد الاستغناء فإنه غلط منه، وإنما عنى الأعشى في هذا الموضع الإقامة من قول العرب غني فلان بمكان كذا أي أقام ومنه قوله تعالى:{كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا}. وإذا احتمل قوله عليه الصلاة والسلام: "يتغن" الغناء والاستغناء فليس حمله على أحدهما بأولى من الآخر، بل حمله على الاستغناء أولى لو لم يكن لنا تأويل غيره لأنه مروي عن صحابي كبير كما ذكر سفيان، وقد قال ابن وهب في حق سفيان: ما رأيت أعلم بتأويل الأحاديث من سفيان بن عيينة، ومعلوم أنه رأى الشافعي وعاصره.

وتأويل سادس: وهو ما جاء من الزيادة في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به" . قال الطبري: ولو كان كما قال ابن عيينة لم يكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنى. قلنا قوله يجهر به لا يخلو أن يكون من قول النبي صلى الله عليه وسلم أو من قول أبي هريرة أو غيره، فإن كان الأول وفيه بعد فهو دليل على عدم التطريب والترجيع لأنه لم يقل يُطرِب به وإنما قال يجهر به، أي يسمع نفسه ومن يليه، بدليل قوله عليه السلام للذي سمعه وقد رفع صوته بالتهليل: "أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لستم تدعون أصم ولا غائبا"، الحديث. وكذلك إن كان من صحابي أو غيره فلا حجة فيه على ما راموه وقد اختار هذا التأويل بعض علمائنا، فقال: وهذا أشبه لأن العرب تسمي كل من رفع صوته ووالي به غانيا، وفعله ذلك غناء وإن لم يلحنه بتلحين الغناء. وقد احتج أبو الحسن بن بطال لمذهب الشافعي فقال وقد رفع الإشكال في هذه المسألة ما رواه ابن أبي شيبة، قال حدثنا زيد بن الحباب، قال حدثنا موسى بن علي بن رباح عن أبيه، عن عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله صلى عليه وسلم:"تعلموا القرآن وغنوا به واكتبوه فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصيا من المخاض من العقل" . قال علماؤنا: وهذا الحديث وإن صح سنده فيرده ما يعلم على القطع والبتات من أن قراءة القرآن بلغتنا متواترة عن كافة المشايخ جيلا فجيلا إلى العصر الكريم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس فيها تلحين ولا تطريب مع كثرة المتعمقين في مخارج الحروف وفي المد والإدغام والإظهار وغير ذلك من كيفية القراءات؛ ثم إن في الترجيع والتطريب همز ما ليس بمهموز ومد ما ليس بمدود، فترجع الألف الواحدة ألفات، والواو الواحدة واوات، والشبهة الواحدة شبهات، فيؤدي ذلك إلى زيادة في القرآن، وذلك ممنوع. وإن وافق ذلك موضع نبر وهمز صيروها نبرات وهمزات، والنبرة حيثما وقعت من الحروف فإنما هي همزة واحدة لا غير، إما ممدودة وإما مقصورة. فإن قيل فقد روى عبد الله بن مغفل قال:"قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في

مسير له سورة الفتح على راحلته فرجع في قراءته"، وذكره البخاري وقال: في صفة الترجيع آء آء آء ثلاث مرات. قلنا ذلك محمول على إشباع المد في موضعه، ويحتمل أن يكون حكاية صوته عند هز الراحلة كما يعتري رافع صوته إذا كان راكبا من انضغاط صوته وتقطيعه لأجل هز المركوب، وإذا احتمل هذا فلا حجة فيه. وقد خرج أبو محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من حديث قتادة عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال: "كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم المد ليس فيها ترجيع". وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن يطرب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"إن الأذان سهل سمح فإذا كان أذانك سمحا سهلا وإلا فلا تؤذن"، أخرجه الدار قطني في سننه. فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد منع ذلك في الأذان فأحرى ألا يجوزه في القرآن الذي حفظه الرحمن، فقال وقوله الحق:{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}، وقال تعالى:{لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}. قلت: وهذا الخلاف إنما هو ما لم يُفهم معنى القرآن بترديد الأصوات وكثرة الترجيعات، فإن زاد الأمر على ذلك حتى لا يُفهم معناه فذلك حرام باتفاق، **كما يفعل القرآء بالديار المصرية**، الذين يقرءون أمام الملوك والجنائز ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز، ضل سعيهم وخاب عملهم، فيستحلون بذلك تغيير كتاب الله، ويهونون على أنفسهم الاجتراء على الله بأن يزيدوا في تنزيله ما ليس فيه جهلا بدينهم ومروقا عن سنة نبيهم، ورفضا لسير الصالحين فيه من سلفهم، ونزوعا إلى ما يزين لهم الشيطان من أعمالهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فهم في غيهم يترددون، وبكتاب الله يتلاعبون، فإنا لله وإنا إليه راجعون. لكن قد اخبر الصادق أن ذلك يكون فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم.

ذكر الإمام الحافظ أبو الحسين رزين وأبو عبدالله الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث حذيفة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتابين وسيجيء بعدي قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم". اللحون جمع لحن وهو التطريب وترجيع الصوت وتحسينه بالقراءة والشعر والغناء. قال علماؤنا: ويشبه أن يكون هذا الذي يفعله قراء زماننا بين يدي الوعاظ وفي المجالس من اللحون الأعجمية التي يقرءون بها ما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. والترجيع في القراءة ترديد الحروف كقراءة النصارى، والترتيل في القراءة هو التأني فيها والتمهل وتبيين الحروف والحركات، تشبيها بالثغر المرتل وهو المشبه بنور الأقحوان وهو المطلوب في قراءة القرآن قال الله تعالى:{وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً}.

باب ما يلزم قارىء القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته

قال الترمذي الحكيم أبو عبدالله في (نوادر الأصول): فمن حرمة القرآن ألا يمسه إلا طاهرا، ومن حرمته أن يقرأه وهو على طهارة، ومن حرمته أن يستاك ويتحلل فيطيب فاه إذ هو طريقه. قال يزيد بن أبي مالك: إن أفواهكم طرق من طرق القرآن فطهروها ونظفوها ما استطعتم. ومن حرمته إذا تثاءب أن يُمسك عن القراءة، لأنه إذا قرأ فهو مخاطب ربه ومناج، والتثاؤب من الشيطان. قال مجاهد: إذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القرآن تعظيما حتى يذهب تثاؤبك. يريد أن في ذلك

الفعل إجلالا للقرآن. ومن حرمته أن يستعيذ بالله عند ابتدائه للقراءة من الشيطان الرجيم ويقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إن كان ابتدأ قراءته من أول السورة، أو من حيث بلغ. ومن حرمته إذا أخذ في القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة. ومن حرمته أن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه، لأنه إذا فعل ذلك زال عنه سلطان الاستعاذة الذي استعاذ في البدء. ومن حرمته أن يقرأه على تؤدة وترسيل وترتيل. ومن حرمته أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يخاطب به. ومن حرمته أن يقف على آية الوعد فيرغب إلى الله تعالى ويسأله من فضله، وأن يقف على آية الوعيد فيستجير بالله منه. ومن حرمته أن يقف على أمثاله فيمتثلها. ومن حرمته أن يلتمس غرائبه. ومن حرمته أن يؤدي لكل حرف حقه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ تماما، فإن له بكل حرف عشر حسنات. ومن حرمته إذا انتهت قراءته أن يصدق ربه ويشهد بالبلاغ لرسوله صلى الله عليه وسلم ويشهد على ذلك أنه حق، فيقول: صدقت ربنا وبلغت رسلك ونحن على ذلك من الشاهدين، اللهم اجعلنا من شهداء الحق القائمين بالقسط، ثم يدعو بدعوات. ومن حرمته إذا قرأ ألا يلتقط الآي من كل سورة فيقرأها، فإنه روي لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:"أنه مر ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئا فأمره أن يقرأ السورة كلها"، أو كما قال عليه السلام. ومن حرمته إذا وضع المصحف ألا يتركه منشورا، وألا يضع فوقه شيئا من الكتب حتى يكون أبدا عاليا لسائر الكتب علما كان أو غيره. ومن حرمته أن يضعه في حجره إذا قرأه أو على شيء بين يديه ولا يضعه بالأرض. ومن حرمته ألا يخلي يوما من أيامه من النظر في المصحف مرة، وكان أبو موسى يقول: إني لأستحي ألا أنظر كل يوم في عهد ربي مرة. ومن حرمته أن يعطي عينيه حظهما منه فإن العين تؤدي إلى النفس وبين النفس والصدر حجاب والقرآن في الصدر، فإذا قرأه عن ظهر قلب فإنما يسمع أذنه فتؤدي إلى النفس، فإذا نظر في الخط كانت العين والأذن قد اشتركتا في الأداء، وذلك أوفر للأداء، وكان قد أخذت العين حظها كالأذن. روى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"أعطوا أعينكم حظها من العبادة، قالوا: يا رسول الله وما حظها من العبادة؟ قال النظر في المصحف والتفكير فيه والاعتبار عند عجائبه". وروى مكحول عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن نظرا"[١٥]. ومن حرمته ألا يتأوله عندما يعرض له شيء من أمر الدنيا؛ حدثنا عمرو بن زياد الحنظلي قال: حدثنا هشيم بن بشير عن المغيرة عن إبراهيم قال: كان يكره أن يتأول شيء من القرآن عندما يعرض له شيء من أمر الدنيا. **والتأويل مثل قولك للرجل إذا جاءك جئت على قدر يا موسى؛ ومثل قوله تعالى:{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ}، هذا عند حضور الطعام وأشباه هذا**. ومن حرمته ألا يقال: سورة كذا؛ كقولك: سورة النحل وسورة البقرة وسورة النساء، ولكن يقال: السورة التي يذكر فيها كذا. قلت: هذا يعارضه قوله صلى الله عليه وسلم: "الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كفتاه"، خرجه البخاري ومسلم من حديث عبدالله بن مسعود. ومن حرمته ألا يُتلى منكوسا كفعل معلمي الصبيان يلتمس أحدهم بذلك أن يرى الحذق من نفسه والمهارة، فإن تلك مخالفة. ومن حرمته ألا يُقعر في قراءته كفعل هؤلاء الهمزيين المبتدعين والمتنطعين في إبراز الكلام من تلك الأفواه المنتنة تكلفا، فإن ذلك محدث ألقاه إليهم الشيطان فقبلوه عنه. ومن حرمته ألا يقرأه بألحان الغناء كلحون أهل الفسق ولا بترجيع النصارى ولا نوح الرهبانية، فإن ذلك كله زيغ. ومن حرمته ألا يجهر بعض على بعض في القراءة فيفسد عليه حتى يُبغض إليه ما يسمع ويكون كهيئة المغالبة. ومن حرمته ألا يماري ولا يجادل فيه في

[١٥] أنظر الحاشية رقم ٩ (المصنف)

القراءات، ولا يقول لصاحبه: ليس هكذا هو، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة جائزة من القرآن فيكون قد جحد كتاب الله. ومن حرمته ألا يقرأ في الأسواق ولا في مواطن اللغط واللغو ومجمع السفهاء، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم {إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً} هذا لمروره بنفسه، فكيف إذا مر بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهراني أهل اللغو ومجمع السفهاء. ومن حرمته ألا يتوسد المصحف ولا يعتمد عليه ولا يرمي به إلى صاحبه إذا أراد أن يناوله. ومن حرمته ألا يخلط فيه ما ليس منه. ومن حرمته ألا يحلى بالذهب ولا يكتب بالذهب فتخلط به زينة الدنيا؛ وروى مغيرة عن إبراهيم أنه كان يكره أن يُحلى المصحف أو يكتب بالذهب، أو يُعلم عند رءوس الآي أو يُصغر. وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدبار عليكم". وقال ابن عباس وقد رأى مصحفا زُيّن بفضة: تغرون به السارق وزينته في جوفه. ومن حرمته ألا يكتب على الأرض ولا على حائط كما يُفعل به في المساجد المحدثة. حدثنا محمد بن علي الشقيقي عن أبيه عن عبدالله بن المبارك عن سفيان عن محمد بن الزبير قال: سمعت عمر بن عبدالعزيز يُحدث قال: مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب في أرض، فقال لشاب من هذيل:"ماهذا؟ قال من كتاب الله كتبه يهودي. فقال لعن الله من فعل هذا لا تضعوا كتاب الله إلا موضعه". قال محمد بن الزبير: رأى عمر بن عبدالعزيز ابنا له يكتب القرآن على حائط فضربه. ومن حرمته أن يفتتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ختم يقرأ من أول القرآن قدر خمس آيات لئلا يكون في هيئة المهجور.

تبويب سور القرآن

يقول الإمام ابن كثير:

قال أبو بكر بن الأنباري: حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، عن حجاج بن مِنْهال، عن همام، عن قتادة قال: نزل في المدينة من القرآن البقرة، وآل عمرانَ، والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنُّور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والحديد، والرحمن، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، ويا أيها النبي لمَ تُحَرِّم، وإلى رأس العشر، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصرُ الله. هؤلاء السور نزلت بالمدينة، وسائر القرآن نزل بمكة. فأما عدد آيات القرآن فستة آلاف آية، ثم اختُلف فيما زاد على ذلك على أقوال، فمنهم من لم يزد على ذلك، ومنهم من قال: ومائتا آية وأربع آيات، وقيل: وأربع عشرة آية، وقيل: ومائتان وتسع عشرة، وقيل: ومائتان وخمس وعشرون آية، وست وعشرون آية، وقيل: ومائتا آية ، وست وثلاثون آية. حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتاب البيان. وأما كلماته، فقال الفضل بن شاذان، عن عطاءِ بن يسار: سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة. وأما حروفُه، فقال عبد الله بن كثير، عن مجاهد: هذا ما أحصينا من القرآن وهو ثلاثُمائةِ ألفِ حرف وواحدٌ وعشرون ألفَ حَرْفٍ ومائَةٌ وثمانونَ حرفًا. وقال الفضل، عن عطاء بن يسار: ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفًا وخمسة عشر حرفًا. وقال سَلام أبو محمد الحمانيّ: إنّ الحجاج جمع القراء والحفاظ والكُتَّاب فقال: أخبروني عن القرآن كُلِّه كم من حرفٍ هو؟ قال: فحسبناه فأجمعوا أنه ثلاثُمائة ألفِ حَرْف وأربعون ألفًا وسبعمائة وأربعون حرفًا. قال: فأخبروني عن نصفه. فإذا هو إلى الفاء من قوله في الكهف: {وَلْيَتَلَطَّفْ}[الكهف: ١٩]، وثُلثه الأول عند رأس مائة آية من براءة، والثاني على رأس مائة أو إحدى ومائة من

الشعراء، والثالث إلى آخره. وسُبُعُه الأول إلى الدال من قوله:{فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ}[النساء: ٥٥]. والسُّبُع الثاني إلى الباء من قوله في الأعراف:{حَبِطَتْ}[الأعراف: ١٤٧]، والثالث إلى الألف الثانية من:{أُكُلَهَا} في الرعد [الرعد: ٣٥] ، والرابع إلى الألف من قوله في الحج:{جَعَلْنَا مَنْسَكًا}[الحج: ٦٧]، والخامس إلى الهاء من قوله في الأحزاب: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ}[الأحزاب:٣٦]، والسادس إلى الواو من قوله في الفتح:{الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ}[الفتح: ٦]، والسابع إلى آخر القرآن. قال سلام أبو محمد: عملنا ذلك في أربعة أشهر.

وأما التحزيب والتجزئة فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الربعات في المدارس وغيرها، وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد في تحزيب الصحابة للقرآن، والحديث في مسند أحمدَ وسُنَن أبي داودَ وابن ماجَهْ وغيرهما عن أوس بن حُذَيفة أَنَّه سَأَلَ أصحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في حياته: كيف يُحَزِّبون القرآن؟ قالوا: ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرَةَ وثلاثَ عَشْرَةَ، وحزْبُ المفَصَّل من قاف حتى يختم.

قال القرطبي: أجمعوا أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية؟ وأجمعوا أن فيه أعلامًا من الأعجمية كإبراهيم ونوح ولوط، واختلفوا: هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية؟ فأنكر ذلك الباقلاني والطبري وقالا ما وقع فيه ما يوافق الأعجمية، فهو من باب ما توافقت فيه اللغات. واختلفوا في معنى السورة: مِمَّ هي مشتقة؟ فقيل: من الإبانة والارتفاع. قال النابغة: ألم تر أنَّ الله أعطاكَ سورَةً... تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونها يَتَذَبْذَبُ، فكأن القارئ يتنقل بها من منزلة إلى منزلة. وقيل: لشرفها وارتفاعها كسور البلد. وقيل: سميت سُورَةً لكونها قِطْعةً من القرآن وجزءًا منه، مأخوذ من أسآر الإناء وهو البقية، وعلى هذا فيكون أصلها مهموزًا، وإنما خففت فأبدلت الهمزة واوًا لانضمام ما قبلها. وقيل: لتمامها وكمالها لأن العرب يسمون الناقة التامة سُورَةً. قلت: ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها كما سُمِّي سورُ البلد لإحاطته بمنازِله ودُورِه، والله أعلم. وجمع السورة سُوَرٌ بفتح الواو، وقد تُجمع على سُورَاتٍ وسُوْرَات. وأما الآية فمن العلامَةِ على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصاله، أي: هي بائنة من أختها. قال الله تعالى:{إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ}[البقرة:٢٤٨]، وقال النابغة: تَوَهَّمْتُ آياتٍ لها فَعَرَفْتُها... لستَّةِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ. وقيل: لأنها جماعةُ حروفٍ من القرآن وطائفة منه، كما يقال: خرج القوم بآيتهم، أي : بجماعتهم. وقيل: سُمِّيت آيةً لأنها عَجَبٌ يَعْجِز البشر عن التكلّم بمثلها. قال سيبويه: وأصلها أَيَيَة مثل أَكَمَة وشَجَرَة، تحرَّكت الياءُ وافتتح ما قبلها فقلبت ألفًا فصارت آية، بهمزة بعدها مدة. وقال الكسائي: آيِيَة على وزن آمِنة، فَقُلِبت ألفًا، ثم حُذفت لالتباسها. وقال الفَرَّاء: أصلها أَيَّة- بتشديد الياء – فَقُلِبَت الأولى ألفًا، كراهيةَ التشديد فصارت آية، وجمعُها: آىٌ وآياىٌ وآياتٌ. وأما الكلمة فهي اللفظ الواحد، وقد تكون على حرفين مثل: ما ولا وله ولك، وقد يكون أكثر.وأكثر ما يكون عشرة حروف:{لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ}[النور:٥٥]، {أَنُلْزِمُكُمُوهَا}[هود:٢٨]،{فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ}[الحجر:٢٢]، وقد تكون الكلمة آية مثل: والفجر، والضحى، والعَصْر، وكذلك: الم، وطه، ويس، وحم- في قول الكوفيين- و{حم عسق} عندهم كلمتان. وغيرهم لا يسمى هذه آيات بل يقول: هي فواتح السُّوَرِ. وقال أبو عَمْرو الدانيّ: لا أعلم كلمةً هي وحدها آيةٌ إلا قوله:{مُدْهَامَّتَانِ} في سورة الرحمن [الرحمن : ٦٤].

ويقول الإمام القرطبي:

(**فصل**) وأما شكل المصحف ونقطه، فروي أن عبد الملك بن مروان أمر به وعمله، فتجرد لذلك الحجاج بواسط وجد فيه وزاد تحزيبه وأمر وهو والي العراق الحسن ويحي بن يعمر بذلك. وألف إثر ذلك بواسط كتابا في القراءات جمع فيه ما روي من اختلاف الناس فيما وافق الخط، ومشى الناس على ذلك زمانا طويلا إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه في القراءات. وأسند الزبيدي في كتاب الطبقات إلى المبرد أن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي؛ وذكر أيضا أن ابن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر.

(**فصل**) وأما وضع الأعشار، فقال ابن عطية: مر بي في بعض التواريخ أن المأمون العباسي أمر بذلك، وقيل إن الحجاج فعل ذلك. وذكر أبو عمرو الداني في كتاب البيان له عن عبد الله بن مسعود أنه كره التعشير في المصحف وأنه كان يحكه، وعن مجاهد أن كره التعشير والطيب في المصحف. وقال أشهب: سمعت مالكا وسئل عن العشور التي تكون في المصحف بالحمرة وغيرها من الألوان فكره ذلك وقال تعشير المصحف بالحبر لا بأس به؛ وسئل عن المصاحف يكتب فيها خواتم السور في كل سورة ما فيها من آية، قال: إني أكره ذلك في أمهات المصاحف أن يكتب فيها شيء أو يشكل فأما ما يتعلم به الغلمان من المصاحف فلا أرى بذلك بأسا. وقال قتادة: بدءوا فنقطوا ثم خمسوا ثم عشروا. وقال يحيى بن أبي كثير: كان القرآن مجردا في المصاحف فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء والثاء، وقالوا: لا بأس به هو نور له، ثم أحدثوا نقطا عند منتهى الآي، ثم أحدثوا الفواتح والخواتيم. قال الدّاني رضي الله عنه: وهذه الأخبار كلها تؤذن بأن التعشير والتخميس وفواتح السور ورءوس الآي من عمل الصحابة رضي الله عنهم، قادهم إلى عمله الاجتهاد، وأرى أن من كره ذلك منهم ومن غيرهم إنما كره أن يعمل بالألوان كالحمرة والصفرة وغيرهما. على أن المسلمين في سائر الآفاق قد أطبقوا على جواز ذلك واستعماله في الأمهات وغيرها والحرج والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله.

(**فصل**) وأما عدد حروفه وأجزائه، فروى سلام أبو محمد الحماني أن الحجاج بن يوسف جمع القراء والحفاظ والكتاب فقال: أخبروني عن القرآن كله كم من حرف هو؟ قال: وكنت فيهم، فحسبنا فأجمعنا على أن القرآن ثلثمائة ألف حرف وأربعون ألف حرف وسبعمائة حرف وأربعون حرفا. قال: فأخبروني إلى أي حرف ينتهي نصف القرآن؟ فإذا هو الكهف {وَلْيَتَلَطَّفْ} في الفاء، قال: فأخبروني بأثلاثه. فإذا الثلث الأول رأس مائة من براءة، والثلث الثاني رأس مائة أو إحدى ومائة من طسم الشعراء، والثلث الثالث مابقي من القرآن. قال: فأخبروني بأسباعه على الحروف. فإذا أول سبع في النساء {فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ} في الدال، والسبع الثاني في الأعراف {أُولَئِكَ حَبِطَتْ} في التاء، والسبع الثالث في الرعد {أُكُلُهَا دَائِمٌ} في الألف من آخر أكلها، والسبع الرابع في الحج {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً} في الألف، والسبع الخامس في الأحزاب {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ} في الهاء، والسبع السادس في الفتح {الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ} في الواو، والسبع السابع ما بقي من القرآن. قال سلام أبو محمد: علمناه في أربعة أشهر، وكان الحجاج يقرأ في كل ليلة ربعا فأول ربعه خاتمة الأنعام، والربع الثاني في الكهف وليتلطف، والربع الثالث خاتمة الزمر، والربع الرابع ما بقي من القرآن.

باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف

معنى **السورة** في كلام العرب الإبانة لها من سورة أخرى وانفصالها عنها، وسميت بذلك لأنه يرتفع فيها من منزلة إلى منزلة قال النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ... ترى كل ملك دونها يتذبذب

أي منزلة شرف ارتفعت إليها عن منزل الملوك. وقيل: سميت بذلك لشرفها وارتفاعها، كما يقال لما ارتفع من الأرض سور. وقيل: سميت بذلك لأن قارئها يشرف على ما لم يكن عنده كسور البناء كله بغير همز، وقيل: سميت بذلك لأنها قطعت من القرآن على حدة، من قول السرب للبقية سؤر، وجاء في أسآر الناس أي بقاياهم، فعلى هذا يكون الأصل سؤرة بالهمزة ثم خففت فأبدلت واوا لانضمام ما قبلها. وقيل: سميت بذلك لتمامها وكمالها من قول العرب للناقة التامة سورة، وجمع سورة سور بفتح الواو، ويجوز أن يجمع على سورات وسورات. وأما **الآية** فهي العلامة، بمعنى أنها علامة لانقطاع الكلام الذي قبلها من الذي بعدها وانفصاله، أي هي بائنة من أختها ومنفردة؛ وتقول العرب: بيني وبين فلان آية، أي علامة؛ ومن ذلك قوله تعالى:{إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ}.وقيل: سميت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه، كما يقال خرج القوم بآياتهم أي بجماعتهم. وقيل: سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها. وأما **الكلمة** فهي الصورة القائمة بجميع ما يختلط بها من الشبهات أي الحروف. وأطول الكلم في كتاب الله عز وجل ما بلغ عشرة أحرف نحو قوله تعالى:{لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ} و{أَنُلْزِمُكُمُوهَا}، وشبههما. فأما قوله:{فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ} فهو عشرة أحرف في الرسم وأحد عشر في اللفظ. وأقصرهن ما كان على حرفين نحو ما ولا ولك وله، وما أشبه ذلك. ومن حروف المعاني ما هو على كلمة واحدة مثل همزة الاستفهام وواو العطف إلا أنه لا ينطق به مفردا. وقد تكون الكلمة وحدها آية تامة نحو قوله تعالى:{وَالْفَجْرِ}{وَالضُّحَى}{وَالْعَصْرِ}، وكذلك{الم} و{المص} و{طه} و{يس} و{حم} في قول الكوفيين، وذلك في فواتح السور فأما في حشوهن فلا. قال أبو عمرو الداني: ولا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله في الرحمن{مُدْهَامَّتَانِ} لا غير. وقد أتت كلمتان متصلتان وهما آيتان وذلك في قوله:{حم عسق} على قول الكوفيين لا غير. وقد تكون الكلمة في غير هذا الآية التامة والكلام القائم بنفسه، وإن كان أكثر أو أقل قال عز وجل:{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ بِمَا صَبَرُوا}، قيل: إنما يعني بالكلمة ها هنا قوله تبارك وتعالى:{نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ}، إلى آخر الآيتين. وقال عز وجل:{وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}، قال مجاهد: لا إله إلا الله. وقال النبي صلى الله عليه وسلم:"كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم". وقد تسمي العرب القصيدة بأسرها والقصة كلها كلمة، فيقولون قال قس في كلمته كذا، أي في خطبته. وقال زهير في كلمته كذا أي في قصيدته، وقال فلان في كلمته يعني في رسالته، فتسمي جملة الكلام كلمة إذ كانت الكلمة منها على عادتهم في تسميتهم الشيء باسم ما هو منه وما قاربه وجاوره وكان بسبب منه مجازا واتساعا. وأما **الحرف** فهو الشبهة القائمة وحدها من الكلمة، وقد يسمى الحرف كلمة والكلمة حرفا، على ما بيناه من الاتساع والمجاز. قال أبو عمرو الداني: فإن قيل فكيف يسمى ما جاء من حروف الهجاء في الفواتح على حرف واحد نحو ص و ق و ن حرفا أو كلمة ؟ قلت: كلمة لا حرفا، وذلك من جهة أن الحرف لا

يسكت عليه ولا ينفرد وحده في الصورة ولا ينفصل مما يختلط به، وهذه الحروف مسكوت عليها منفردة منفصلة كانفراد الكلم وانفصالها، فلذلك سميت كلمات لا حروفا. قال أبو عمرو: وقد يكون الحرف في غير هذا المذهب والوجه. قال الله عز وجل:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ}، أي على وجه ومذهب. ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أُنزل القرآن على سبعة أحرف" أي سبعة أوجه من اللغات والله أعلم.

لغة القرآن وإعجازه

يقول الإمام القرطبي:

باب هل ورد في القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب

أولا: لا خلاف بين الأئمة أنه ليس في القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب، وأن فيه أسماء أعلام لمن لسانه غير لسان العرب كإسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط. واختلفوا هل وقع فيه غير أعلام مفردة من غير كلام العرب، فذهب القاضي أبو بكر بن الطيب والطبري وغيرهما إلى أن ذلك لا يوجد فيه، وأن القرآن عربي صريح، وما وُجد فيه من الألفاظ التي تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة وغيرهم. وذهب بعضهم إلى وجودها فيه، وأن تلك الألفاظ لقلتها لا تُخرج القرآن عن كونه عربيا مبينا ولا رسول الله عن كونه متكلما بلسان قومه؛ فالمشكاة: الكوة، ونشأ: قام من الليل، ومنه{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ} و{يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ} أي ضعفين، {فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ} أي الأسد كله، بلسان الحبشة، والغساق البارد المنتن بلسان الترك، والقسطاس الميزان بلغة الروم، والسجيل الحجارة والطين بلسان الفرس، والطور الجبل واليم البحر بالسريانية، والتنور وجه الأرض بالعجمية. قال ابن عطية: فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب وعربتها فهي عربية بهذا الوجه، وقد كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات وبرحلتي قريش وكسفر مسافر بن أبي عمرو إلى الشام، وكسفر عمر بن الخطاب وكسفر عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة، وكسفر الأعشى إلى الحيرة وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة، فعلقت العرب بهذا كله ألفاظا أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها حتى جرى مجرى العربي الصحيح ووقع بها البيان، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن فإن جهلها عربي ما فكجهله الصريح بما في لغة غيره، كما لم يعرف ابن عباس معنى فاطر إلى غير ذلك. قال ابن عطية: وما ذهب إليه الطبري رحمه الله من أن اللغتين اتفقتا في لفظة لفظة فذلك بعيد، بل إحداهما أصل والأخرى فرع في الأكثر، لأنا لا ندفع أيضا جواز الاتفاق قليلا شاذا. قال غيره: والأول أصح وقوله هي أصل في كلام غيرهم دخيلة في كلامهم ليس بأولى من العكس، فإن العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بها أولا، فإن كان الأول فهي من كلامهم إذ لا معنى للغتهم وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم، وقد قال ذلك الإمام الكبير

أبو عبيدة. فإن قيل: ليست هذه الكلمات على أوزان كلام العرب فلا تكون منه، قلنا ومن سلم لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هذه منها، فقد بحث القاضي عن أصول أوزان كلام العرب ورد هذه الأسماء إليها على الطريقة النحوية، **وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون، وحينئذ لا يكون القرآن عربيا مبينا ولا يكون الرسول مخاطبا لقومه بلسانهم** والله أعلم.

باب ذكر نكت في إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها

المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، وشرائطها خمسة فإن اختل منها شرط لا تكون معجزة. فالشرط الأول من شروطها أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه. وإنما وجب حصول هذا الشرط للمعجزة لأنه لو أتى آت في زمان يصح فيه مجيء الرسل وادعى الرسالة وجعل معجزته أن يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد، لم يكن هذا الذي ادعاه معجزة له ولا دالا على صدقه لقدرة الخلق على مثله، وإنما يجب أن تكون المعجزات كفلق البحر وانشقاق القمر وما شاكلها مما لا يقدر عليها البشر. والشرط الثاني هو أن تخرق العادة، وإنما وجب اشتراط ذلك لأنه لو قال المدعي للرسالة آيتي مجيء الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها لم يكن فيما ادعاه معجزة، لأن هذه الأفعال وإن كان لا يقدر عليها إلا الله فلم تُفعل من أجله، وقد كان قبل دعواه على ما هي عليه في حين دعواه، ودعواه في دلالتها على نبوته كدعوى غيره. فبان أنه لا وجه له يدل على صدقه. والذي يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه، وذلك أن يقول الدليل على صدقي أن يخرق الله تعالى العادة من أجل دعواي على الرسالة، فيقلب هذه العصا ثعبانا، ويشق الحجر ويخرج من وسطه ناقة، أو ينبع الماء من بين أصابعي كما ينبعه من العين، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات التي ينفرد بها جبار الأرض والسموات، فتقوم له هذه العلامات مقام قول الرب سبحانه لو أسمعنا كلامه العزيز وقال صدق أنا بعثته. والشرط الثالث هو أن يستشهد بها مدعي الرسالة على الله عز وجل، فيقول آيتي أن يقلب الله سبحانه هذا الماء زيتا أو يحرك الأرض عند قولي لها تزلزلي، فإذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدى به. الشرط الرابع هو أن تقع على وفق دعوى المتحدي بها المستشهد بكونها معجزة له، وإنما وجب اشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدعي للرسالة: آية نبوتي ودليل حجتي أن تنطق يدي أو هذه الدابة فنطقت يده أو الدابة بأن قالت كذب وليس هو نبي فإن هذا الكلام الذي خلقه الله تعالى دال على كذب ذلك المدعي للرسالة لأن ما فعله الله لم يقع على وفق دعواه؛ وكذلك ما يُروى أن مسيلمة الكذاب لعنه الله تفل في بئر ليكثر ماؤها فغارت البئر وذهب ما كان فيها من الماء، فما فعل الله سبحانه من هذا كان من الآيات المكذبة لمن ظهرت على يديه لأنها وقعت على خلاف ما أراده المتنبئ الكذاب. والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدي على وجه المعارضة، فإن تم الأمر المتحدى به المستشهد به على النبوة على هذا الشرط مع الشروط المتقدمة فهي معجزة دالة على نبوة من ظهرت على يده. فإن أقام الله تعالى من يعارضه حتى يأتي بمثل ما أتى به يعمل مثل ما عمل بطل كونه نبيا وخرج عن كونه معجزا ولم يدل على صدقه، ولهذا قال المولى سبحانه: {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ}، وقال: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ}، كأنه يقول: إن ادعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد صلى الله عليه وسلم وعمله فاعملوا عشر سور من جنس نظمه، فإذا عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله.

(**فصل**) إذا ثبت هذا فاعلم أن المعجزات على ضربين: الأول، ما اشتهر نقله وانقرض عصره بموت النبي صلى الله عليه وسلم. والثاني، ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله واستفاضت بثبوته ووجوده ووقع لسامعها العلم بذلك ضرورة، ومن شرطه أن يكون الناقلون له خلقا كثيرا وجما غفيرا، وأن يكونوا عالمين بما نقلوه علما ضروريا، وأن يستوي في النقل أولهم وآخرهم ووسطهم في كثرة العدد حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب، **وهذه صفة نقل القرآن ونقل وجود النبي عليه الصلاة والسلام، لأن الأمة رضي الله عنها لم تزل تنقل القرآن خلفا عن سلف والسلف عن سلفه إلى أن يتصل ذلك بالنبي عليه السلام المعلوم وجوده بالضرورة وصدقه بالأدلة والمعجزات**. والرسول أخذه عن جبريل عليه السلام عن ربه عز وجل فنقل القرآن في الأصل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان ونقله إلينا بعدهم أهل التواتر الذين لا يجوز عليهم الكذب فيما ينقلوه ويسمعونه لكثرة العدد، ولذلك وقع لنا العلم الضروري بصدقهم فيما نقلوه من وجود محمد صلى الله عليه وسلم ومن ظهور القرآن على يديه وتحديه به. ونظير ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بما نقل إليه من وجود البلدان كالبصرة والشام والعراق وخرسان والمدينة ومكة وأشباه ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة المتواترة. **فالقرآن معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم الباقية بعده إلى يوم القيامة، ومعجزة كل نبي انقرضت بانقراضه أو دخلها التبديل والتغيير كالتوراة والإنجيل**.

ووجوه إعجاز القرآن الكريم عشرة :

منها: النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها، لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء، وكذلك قال رب العزة الذي تولى نظمه{وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ}. وفي صحيح مسلم أن **أنيسا أخا أبي ذر قال لأبي ذر: لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله، قلت فما يقول الناس، قال: يقولون شاعر كاهن ساحر. وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون**. وكذلك أقر عتبة بن ربيعة أنه ليس بسحر ولا شعر لما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم:{حم}، فُصلت. فإذا اعترف عتبة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة بأنه ما سمع مثل القرآن قط، كان في هذا القول مقرا بإعجاز القرآن له ولضربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه.

ومنها: **الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب**.

ومنها: الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال، وتأمل ذلك في سورة{ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ}إلى آخرها، وقوله سبحانه: {وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} إلى آخر السورة، وكذلك قوله سبحانه:{وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ} إلى آخر السورة. قال ابن الحصار: فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح في خطاب غيره، ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول:{لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ}، ولا أن يقول{ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء}. قال ابن الحصار: وهذه الثلاثة من النظم والأسلوب والجزالة لازمة كل سورة، بل هي لازمة كل آية وبمجموع هذه

الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدي والتعجيز. ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة، من غير أن ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة. فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات قصار وهي أقصر صورة في القرآن، وقد تضمنت الإخبار عن مغيبين أحدهما: الإخبار عن الكوثر وعظمه وسعته وكثرة أوانيه وذلك يدل على أن المصدقين به أكثر من أتباع سائر الرسل، والثاني الإخبار عن الوليد بن المغيرة وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد على ما يقتضيه قول الحق:{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً}، ثم أهلك الله سبحانه ماله وولده وانقطع نسله.

ومنها: التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه.

ومنها: الإخبار عن الأمور التي في أول الدنيا إلى وقت نزوله من أمي ما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها والقرون الخالية في دهرها، وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه وتحدوه به من قصة أهل الكهف وشأن موسى والخضر عليهما السلام وحال ذي القرنين، فجاءهم وهو أمي من أمة أمية ليس لها بذلك علم بما عرفوا من الكتب السالفة صحته فتحققوا صدقه. قال القاضي ابن الطيب: ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم، وإذا كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار وحملة الأخبار ولا مترددا إلى المتعلم منهم ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي.

ومنها: الوفاء بالوعد، المدرك بالحس في العيان في كل ما وعد الله سبحانه. وينقسم إلى أخباره المطلقة كوعده بنصر رسوله عليه السلام وإخراج الذين أخرجوه من وطنه، وإلى وعد مقيد بشرط كقوله:{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}،{وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ}{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً} و{إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ} وشبه ذلك. ومنها: الإخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يُطلع عليها إلا بالوحي، فمن ذلك: ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى:{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ}، الآية، ففعل ذلك وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله في إظهار دينه ليثقوا بالنصر وليستيقنوا بالنجح، وكان عمر يفعل ذلك، فلم يزل الفتح يتوالى شرقا وغربا برا وبحرا، قال الله تعالى:{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، وقال:{ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ}، وقال:{وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ}، وقال:{الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ}. فهذه كلها أخبار عن الغيوب التي لا يقف عليها إلا رب العالمين أو من أوقفه عليها رب العالمين، فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه.

ومنها: ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام في الحلال والحرام وفي سائر الأحكام. ومنها: الحكم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي. ومنها : التناسب في جميع ما تضمنه ظاهرا وباطنا من غير اختلاف، قال الله تعالى:{وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً} .

باب التنبيه عن أحاديث وضعت في فضل سور القرآن وغيره

يقول الإمام القرطبي:

لا التفات لما وضعه الواضعون واختلقه المختلقون من الأحاديث الكاذبة والأخبار الباطلة في فضل سور القرآن وغير ذلك من فضائل الأعمال، قد ارتكبها جماعة كثيرة اختلفت أغراضهم ومقاصدهم في ارتكابها. فمن قوم من الزنادقة مثل المغيرة بن سعيد الكوفي ومحمد بن سعيد الشامي المصلوب في الزندقة وغيرهما، وضعوا أحاديث وحدثوا بها ليوقعوا بذلك الشك في قلوب الناس. فمما رواه محمد بن سعيد عن أنس بن مالك في قوله صلى الله عليه وسلم:"أنا خاتم الأنبياء لا نبي بعدي إلا ما شاء الله". فزاد هذا الاستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة. ومنهم قوم وضعوا الحديث لهوى يدعون الناس إليه. قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب إن هذه الأحاديث دين فانظروا ممن تأخذون دينكم، فإنا كنا إذا هوينا أمرا صيرناه حديثا. ومنهم جماعة الحديث حسبة، كما زعموا يدعون الناس إلى فضائل الأعمال، كما روي عن أبي عصمة نوح بن أبي مريم المروزي ومحمد بن عكاشة الكرماني وأحمد بن عبد الله الجويباري وغيرهم، قيل لأبي عصمة من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضل سور القرآن سورة سورة فقال: إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي محمد بن إسحاق فوضعت هذا الحديث حسبة. قال أبو عمرو عثمان بن الصلاح في كتاب علوم الحديث له: وهكذا الحديث الطويل الذي يروى عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضل القرآن سورة سورة وقد بحث باحث عن مُخرجه حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه وإن أثر الوضع عليه لبين. ومنهم **قوم من السؤال والمكدين يقفون في الأسواق والمساجد فيضعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد**. قال جعفر بن محمد الطيالسي: صلى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين في مسجد الرصافة فقام بين أيديهما قاص فقال حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا أنبأنا عبد الرزاق قال أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قال لا إله إلا الله يخلق من كل كلمة منها طائر منقاره من ذهب وريشه مرجان" وأخذ في قصة نحو من عشرين ورقة، فجعل أحمد ينظر إلى يحيى ويحيى ينظر إلى أحمد فقال: أنت حدثته بهذا فقال: والله ما سمعت به إلا هذه الساعة. قال: فسكتنا جميعا حتى فرغ من قصصه، فقال له يحيى من حدثك بهذا الحديث؟ فقال: أحمد بن حنبل ويحيى بن معين. فقال: أنا ابن معين وهذا أحمد بن حنبل ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كان ولا بد من الكذب فعلى غيرنا. فقال له: أنت يحيى بن معين؟ قال: نعم. قال: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق وما علمته إلا هذه الساعة. فقال له يحيى: وكيف علمت أني أحمق؟ قال: كأنه ليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما. كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا. قال: فوضع أحمد كمه على وجهه وقال دعه يقوم، فقام كالمستهزئ بهما. فهؤلاء الطوائف كذبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يجري مجراهم. يُذكر أن الرشيد كان يعجبه الحمام واللهو به، فأهدي إليه حمام وعنده، أبو البختري القاضي، فقال: روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا سبق إلا في خف أو حافر أو جناح"، فزاد أو جناح وهي لفظة وضعها للرشيد فأعطاه جائزة سنية، فلما خرج قال الرشيد: والله لقد علمت أنه كذاب وأمر بالحمام أن يذبح. فقيل له وما ذنب الحمام، قال: من أجله كذب على

رسول الله صلى الله عليه وسلم. فترك العلماء حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته فلا يكتب العلماء حديثه بحال. قلت: فلو اقتصر الناس على ما ثبت في الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التي تداولها العلماء ورواها الأئمة الفقهاء لكان لهم في ذلك غُنيَة، وخرجوا عن تحذيره صلى الله عليه وسلم حيث قال:"اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار". فتخويفه صلى الله عليه وسلم أمته بالنار على الكذب دليل على أنه كان يعلم أنه سيُكذب عليه، فحذار مما وضعه أعداء الدين وزنادقة المسلمين في باب الترغيب والترهيب وغير ذلك وأعظمهم ضررا أقوام من المنسوبين إلى الزهد وضعوا الحديث حسبة فيما زعموا فتقبل الناس موضوعاتهم ثقة منهم بهم وركونا إليهم فضلوا وأضلوا.

ملاحق

الملحق الأول

رسالة جواب أهل العلم والإيمان أن {قل هو الله أحد} تعدل ثلث القرآن

سئل شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية رضي الله عنه[١٦] عما ورد في سورة {قل هو الله أحد} أنها تعدل ثلث القرآن، وكذلك ورد في سورة {الزلزلة} و {قل يا أيها الكافرون} و {الفاتحة}،

[١٦] الإمام ابن تيمية هو أحمد تقي الدين أبو العباس بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني . وذكر مترجموه أقوالاً في سبب تلقيب العائلة بآل (تيمية) منها ما نقله ابن عبد الهادي رحمه الله أن جده محمداً كانت أمه تسمى (تيمية)، وكانت واعظة، فنسب إليها، وعرف بها. وقيل إن جده محمد بن الخضر حج على درب تيماء، فرأى هناك طفلة، فلما رجع وجد امرأته قد ولدت بنتاً له فقال: يا تيمية، يا تيمية، فلقب بذلك .

مولده ونشأته

ولد رحمه الله يوم الاثنين، عاشر، وقيل ثاني عشر، من ربيع الأول سنة ٦٦١هـ في حرّان . وفي سنة ٦٦٧هـ أغار التتار على بلده، فاضطرت عائلته إلى ترك حران، متوجهة إلى دمشق، وبها كان مستقر العائلة، حيث طلب العلم على أيدي علمائها منذ صغره، فنبغ ووصل إلى مصاف العلماء من حيث التأهل للتدريس والفتوى قبل أن يتم العشرين من عمره . ومما ذكره ابن عبد الهادي رحمه الله عنه في صغره "أنه سمع مسند الإمام أحمد بن حنبل مرات، وسمع الكتب الستة الكبار والأجزاء، ومن مسموعاته معجم الطبراني الكبير. وعني بالحديث وقرأ ونسخ، وتعلم الخط والحساب في المكتب، وحفظ القرآن، وأقبل على الفقه، وقرأ العربية على ابن عبد القوي ، ثم فهمها، وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهم في النحو، وأقبل على التفسير إقبالاً كلياً، حتى حاز فيه قصب السبق، وأحكم أصول الفقه وغير ذلك. هذا كله وهو بعد ابن بضع عشرة سنة، فانبهر أهل دمشق من فُرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته، وسرعة إدراكه". وقلّ كتاب من فنون العلم إلا وقف عليه، كأن الله قد خصه بسرعة الحفظ، وإبطاء النسيان لم يكن يقف على شيء أو يستمع لشيء – غالباً – إلا ويبقى على خاطره، إما بلفظه أو معناه. وكان رحمه الله حسن الاستنباط، قوي الحجة، سريع البديهة، قال عنه البزاز رحمه الله "أما ما وهبه الله تعالى ومنحه من استنباط المعاني من الألفاظ النبوية والأخبار المروية، وإبراز الدلائل منها على المسائل، وتبيين مفهوم اللفظ ومنطوقه، وإيضاح المخصص للعام، والمقيد للمطلق، والناسخ للمنسوخ، وتبيين ضوابطها، ولوازمها وملزوماتها، وما يترتب عليها، وما يحتاج فيه إليها، حتى إذا ذكر آية أو حديثاً، وبين معانيه، وما أريد فيه، يعجب العالم الفطن من حسن استنباطه، ويدهشه ما سمعه أو وقف عليه منه". وكان رحمه الله ذا عفاف تام، واقتصاد في الملبس والمأكل، صيناً، تقياً، براً بأمه، ورعاً عفيفاً، عابداً، ذاكراً لله في كل أمر على كل حال، رجاعاً إلى الله في سائر الأحوال والقضايا، وقافاً عند حدود الله وأوامره ونواهيه، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، لا تكاد نفسه تشبع من العلم، فلا تروى من المطالعة، ولا تمل من الاشتغال، ولا تكل من البحث.

امتحن الشيخ مرات عدة بسبب نكاية الأقران وحسدهم. ولما كانت منزلة شيخ الإسلام في الشام عالية عند الولاة وعند الرعية، وشى به ضعاف النفوس عند الولاة في مصر، ولم يجدوا غير القدح في عقيدته، فطلب إلى مصر، وتوجه إليها سنة ٧٠٥ هـ. بعدما عقدت له مجالس في دمشق لم يكن للمخالف فيها حجة. وبعد أن وصل إلى مصر بيوم عقدوا له محاكمة كان يظن شيخ الإسلام رحمه الله أنها مناظرة، فامتنع عن الإجابة حين علم أن الخصم والحكم واحد . واستمر في السجن إلى شهر صفر سنة ٧٠٧ هـ، حيث طلب منه وفد من الشام بأن يخرج من السجن، فخرج وآثر البقاء في مصر على رغبتهم الذهاب معهم إلى دمشق. وفي آخر السنة التي أخرج فيها من السجن تعالت صيحات الصوفية في مصر، ومطالباتهم في إسكات صوت شيخ الإسلام رحمه الله، فكان أن خُير شيخ الإسلام بين أن يذهب إلى دمشق أو إلى الإسكندرية أو أن يختار الحبس، فاختار الحبس. إلا أن طلابه ومحبيه أصروا عليه أن يقبل الذهاب إلى دمشق، ففعل نزولاً عند رغبتهم وإلحاحهم. وما إن خرج موكب شيخ الإسلام من القاهرة متوجهاً إلى دمشق، حتى لحق به وفد من السلطان ليردوه إلى مصر ويخبروه بأن الدولة لا ترضى إلا الحبس. وما هي إلا مدة قليلة حتى خرج من السجن وعاد إلى دروسه، وأكب الناس عليه ينهلون من علمه. وفي سنة ٧٠٩ هـ

هل ما ورد في هذه المعادلة ثابت في المجموع أم في البعض؟ ومن روى ذلك؟ وما ثبت من ذلك؟ وما معنى هذه المعادلة وكلام الله واحد بالنسبة إليه عز وجل؟ وهل هذه المفاضلة- بتقدير ثبوتها- متعدية إلى الأسماء والصفات أم لا؟ والصفات القديمة والأسماء القديمة هل يجوز المفاضلة بينها مع أنها قديمة؟ ومن القائل بذلك وفي أي كتبه قال ذلك ووجه الترجيح في ذلك بما يمكن من دليل عقلي ونقلي؟

فأجاب رضي الله عنه: الحمد لله. أما الذي أخرجه أصحاب الصحيح، كالبخاري ومسلم، فأخرجوا **فضل {قل هو الله أحد}**، وروي عن الدارقطني أنه قال: لم يصح في فضل سورة أكثر مما صح في فضلها. وكذلك أخرجوا **فضل {فاتحة الكتاب}**، قال صلى الله عليه وسلم فيها:"إنه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها"، لم يذكر فيها أنها تعدل جزءا من القرآن كما قال في{قل هو الله أحد} إنها تعدل ثلث القرآن. ففي صحيح البخاري عن الضحاك المشرقي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه:"أيعجز أحدكم أن يقرأ بثلث القرآن في ليلة؟" فشق ذلك عليهم وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ قال: "الله الواحد الصمد ثلث القرآن". وفي صحيح مسلم عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟" قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال:"قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن". وروى مسلم أيضا عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل{قل هو الله أحد} جزءا من أجزاء القرآن". وفي صحيح البخاري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي صعصعة عن أبي سعيد أن رجلا سمع رجلا يقرأ {قل هو الله أحد} يرددها فلما أصبح جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له وكان الرجل يتقالها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن". وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن"، قال فحشد من حشد ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم فقرأ{قل هو الله أحد} ثم دخل، فقال بعضنا لبعض إني أرى هذا خبرا جاءه من السماء فذاك الذي أدخله. ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم

نفي من القاهرة إلى الإسكندرية، وكان هذا من الخير لأهل الإسكندرية ليطلبوا العلم على يديه، ويتأثروا من مواعظه، ويتقبلوا منهجه. لكن لم يدم الأمر طويلاً لهم، فبعد سبعة أشهر طلبه إلى القاهرة الناصر قلاوون بعد أن عادت الأمور إليه، واستقرت الأمور بين يديه، فقد كان من مناصري ابن تيمية رحمه الله. وعاد الشيخ إلى دورسه العامرة في القاهرة. وامتحن شيخ الإسلام بسبب فتواه في مسألة الطلاق ، وطُلب منه أن يمتنع عن الإفتاء بها فلم يمتنع حتى سجن في القلعة من دمشق بأمر من نائب السلطنة سنة ٧٢٠ هـ إلى سنة ٧٢١ هـ لمدة خمسة أشهر وبضعة أيام. وبحث حساده عن شيء للوشاية به عند الولاة فزوروا كلاماً له حول زيارة القبور، وقالوا بأنه يمنع من زيارة القبور حتى قبر نبينا محمد صلّى الله عليه وسلّم. فكتب نائب السلطنة في دمشق إلى السلطان في مصر بذلك، ونظروا في الفتوى دون سؤال صاحبها عن صحتها ورأيه فيها، فصدر الحكم بحقه في شعبان من سنة ٧٢٦ هـ بأن ينقل إلى قلعة دمشق ويعتقل فيها هو وبعض أتباعه. واشتدت محنته سنة ٧٢٨ هـ حين أُخرج ما كان عند الشيخ من الكتب والأوراق والأقلام، ومنع من ملاقاة الناس، ومن الكتابة والتأليف .

وفاته رحمه الله:

في ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة من سنة (٧٢٨ هـ) توفي شيخ الإسلام بقلعة دمشق التي كان محبوساً فيها، وأُذن للناس بالدخول فيها، ثم غُسل فيها وقد اجتمع الناس بالقلعة والطريق إلى جامع دمشق، وصُلي عليه بالقلعة، ثم وضعت جنازته في الجامع والجند يحفظونها من الناس من شدة الزحام، ثم صُلي عليه بعد صلاة الظهر، ثم حملت الجنازة، واشتد الزحام، فقد أغلق الناس حوانيتهم، ولم يتخلف عن الحضور إلا القليل من الناس، أو من أعجزه الزحام، وصار النعش على الرؤوس تارة يتقدم، وتارة يتأخر، وتارة يقف حتى يمر الناس، وخرج الناس من الجامع من أبوابه كلها وهي شديدة الزحام .

فقال: "إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ألا إنها تعدل ثلث القرآن". وفي لفظ له قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أقرأ عليكم ثلث القرآن فقرأ {قل هو الله أحد. الله الصمد}، حتى ختمها . وأما حديث {الزلزلة} و{قل يا أيها الكافرون} فروى الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ إذا زلزلت عدلت له نصف القرآن. ومن قرأ قل يا أيها الكافرون عدلت له ربع القرآن". وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {إذا زلزلت} تعدل نصف القرآن و{قل يا أيها الكافرون} تعدل ربع القرآن"، رواهما الترمذي وقال عن كل منهما: **غريب** . وأما حديث{الفاتحة}، فروى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد ابن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي. قال: ألم يقل الله:{استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم}، ثم قال لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن قال: "الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم". وفي السنن والمسانيد من حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب: "ألا أعلمك سورة ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها". قال: "فإني أرجو أن لا تخرج من هذا الباب حتى تعلمها". وقال فيه كيف تقرأ في الصلاة؟ فقرأت عليه أم القرآن. فقال: "والذي نفسي بيده ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها، إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُعطِيته". وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألم تر آيات أُنزلت الليلة لم يُر مثلهن قط{قل أعوذ برب الفلق} و{قل أعوذ برب الناس}"، وفي لفظ: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أُنزل علي آيات لم يُر مثلهن قط: المعوذتان". فقد أخبر في هذا الحديث الصحيح أنه لم ير مثل المعوذتين، كما أخبر أنه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثل الفاتحة، وهذا مما يبين فضل بعض القرآن على بعض.

(**فصل**) أما السؤال عن معنى هذه المعادلة مع الاشتراك في كون الجميع كلام الله، فهذا السؤال يتضمن شيئين، أحدهما: أن كلام الله هل بعضه أفضل من بعض أم لا؟ والثاني: ما معنى كون **{قل هو الله أحد}** تعدل ثلث القرآن؟ وما سبب ذلك؟ فنقول: أما الأول فهو "مسألة كبيرة" والناس متنازعون فيها نزاعا منتشرا. فطوائف يقولون: بعض كلام الله أفضل من بعض كما نطقت به النصوص النبوية، حيث أخبر عن {الفاتحة} أنه لم ينزل في الكتب الثلاثة مثلها، وأخبر عن سورة {الإخلاص} أنها تعدل ثلث القرآن، وعدلها لثلثه يمنع مساواتها لمقدارها في الحروف، وجعل {آية الكرسي} أعظم آية في القرآن كما ثبت ذلك في الصحيح أيضا، وكما ثبت ذلك في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب:"يا أبا المنذر أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم؟" قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: "يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله أعظم؟" قال: فقلت:{الله لا إله إلا هو الحي القيوم}. قال: فضرب في صدري وقال: "ليهنك العلم أبا المنذر". وروي أنها "سيدة آي القرآن". وقال في المعوذتين: "لم يُر مثلهن قط". وقد قال تعالى:{ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها}، فأخبر أنه يأتي بخير منها أو مثلها. وهذا بيان من الله لكون تلك الآية قد يأتي بمثلها تارة أو خير منها أخرى، فدل ذلك على أن الآيات تتماثل تارة، وتتفاضل أخرى. وأيضا فالتوراة والإنجيل والقرآن جميعها كلام الله مع علم المسلمين بأن القرآن أفضل الكتب الثلاثة. قال تعالى:{وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه}. وقال تعالى:{إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}، وقال تعالى:{قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا}، وقال تعالى:{ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها

مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله}، فأخبر أنه أحسن الحديث، فدل على أنه أحسن من سائر الأحاديث المنزلة من عند الله وغير المنزلة. وقال تعالى:{ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم}، وسواء كان المراد بذلك الفاتحة أو القرآن كله، فإنه يدل على أن القرآن العظيم له اختصاص بهذا الوصف على ما ليس كذلك. وقد **سمى الله القرآن كله مجيدا وكريما وعزيزا**. وقد تحدى الخلق بأن يأتوا بمثله أو بمثل عشر سور منه أو بمثل سورة منه فقال:{ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين}، وقال:{فأتوا بعشر سور مثله مفتريات}، وقال:{فأتوا بسورة من مثله}. وخصه بأنه لا يُقرأ في الصلاة إلا هو، فليس لأحد أن يقرأ غيره مع قراءته ولا بدون قراءته، ولا يصلي بلا قرآن، فلا يقوم غيره مقامه مع القدرة عليه. وكذلك لا يقوم غير الفاتحة مقامها من كل وجه باتفاق المسلمين، سواء قيل بأنها فرض تعاد الصلاة بتركها، أو قيل بأنها واجبة يأثم تاركها ولا إعادة عليه، أو قيل إنها سنة. فلم يقل أحد إن قراءة غيرها مساو لقراءتها من كل وجه. وخص القرآن بأنه لا يمس مصحفه إلا طاهر، كما ثبت ذلك عن الصحابة، مثل سعد وسلمان وابن عمر، وجماهير السلف والخلف الفقهاء الأربعة وغيرهم. وكذلك لا يقرأ الجنب القرآن عند جماهير العلماء الفقهاء الأربعة وغيرهم كما دلت على ذلك السنة. وتفضيل أحد الكلامين بأحكام توجب تشريفه يدل على أنه أفضل في نفسه، وإن كان ذلك ترجيحا لأحد المتماثلين بلا مرجح. وأيضا فقد قال تعالى:{واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم}، وقال تعالى:{فبشر عبادي}{الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه}، وقال تعالى:{فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها}، فدل على أن فيما أُنزل حسن وأحسن، سواء كان الأحسن هو الناسخ الذي يجب الأخذ به دون المنسوخ، إذ كان لا ينسخ آية إلا يأتي بخير منها أو مثلها أو كان غير ذلك. والقول بأن كلام الله بعضه أفضل من بعض هو القول المأثور عن السلف، وهو الذي عليه أئمة الفقهاء من الطوائف الأربعة وغيرهم، وكلام القائلين بذلك كثير منتشر في كتب كثيرة، مثل ما سيأتي ذكره عن أبي العباس ابن سريج في تفسيره لهذا الحديث بأن الله أنزل القرآن على ثلاثة أقسام: **ثلث منه أحكام وثلث منه وعد ووعيد وثلث منه الأسماء والصفات**، وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات. ومثل ما ذكره أصحاب الشافعي وأحمد في مسألة تعيين الفاتحة في الصلاة. قال وقد قال أصحابنا إن قراءة الفاتحة لما وجبت في الصلاة وجب أن تتعين الفاتحة لأن القرآن امتاز عن غيره بالإعجاز، وأقل ما يحصل به الإعجاز سورة، وهذه السورة أشرف السور لأنها السبع المثاني، ولأنها تصلح عِوضا عن جميع السور ولا تصلح جميع السور عوضا عنها، ولأنها تشتمل على ما لا تشتمل سورة ما على قدرها من الآيات، وذلك من الثناء والتحميد للرب والاستعانة والاستعاذة والدعاء من العبد. فإذا صارت هذه السورة أشرف السور وكانت الصلاة أشرف الحالات فتعينت أشرف السور في أشرف الحالات. وقال الحسن البصري: أنزل الله مائة كتاب، وأربعة كتب من السماء أودع علومها أربعة منها: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ثم أودع علوم هذه الأربعة الفرقان، ثم أودع علوم القرآن المفصل، ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب؛ فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع كتب الله المنزلة، ومن قرأها فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والقرآن. وأما المعنى فهو أن الله قابلها بجميع القرآن فقال:{ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم}. وهذه حقيقة لا يدانيها غيرها فيها، قلت: هذا على قول من جعلها هي السبع المثاني وجعل القرآن العظيم جميع القرآن. قال: ولأنها تسمى "أم القرآن"، وأم الشيء أصله ومادته ولهذا سمى الله مكة "أم القرى" لشرفها عليهن، ولأنها السبع المثاني ولأنها تشتمل على ما لا تشتمل عليه سورة من الثناء والتحميد للرب تعالى والاستعانة به والاستعاذة والدعاء من العبد على ما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي"، الحديث

المشهور. قال: ولأنه لم ينزل مثلها في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في شيء من الكتب، يدل عليه أنها تُيسر قراءتها على كل أحد ما لا يتيسر غيرها من القرآن وتضرب بها الأمثال. ولهذا يقال: فلان يحفظ الشيء مثل الفاتحة، وإذا كانت بهذه المثابة فغيرها لا يساويها في هذا، فاختصت بالشرف. قال: وأما الحكم فلأنه تستحب قراءتها في كل ركعة ويكره الإخلال بها ولولا أنها أشرف لما اختصت بهذا المعنى، يدل عليه أن عند المنازعين- يعني أصحاب أبي حنيفة- أن من أخل بقراءتها وجب عليه سجود السهو. فنقول: لا يخلو إما أن تكون ركنا أو ليست بركن، فإن كانت ركنا وجب أن لا تجبر بالسجود، وإن لم تكن ركنا وجب أن لا يجب عليه سجود. قلت: يعني بذلك أن السجود لا يجب إلا بترك واجب في حال العمد، فإذا سها عنه وجب له السجود، وما كان واجبا فإذا تعمد تركه وجب أن تبطل صلاته لأنه لم يفعل ما أُمر به، بخلاف من سها عن بعض الواجبات، فإن هذا يمكن أن يجبر ما تركه بسجود السهو. ومذهب مالك وأحمد وأبي حنيفة أن سجود السهو واجب لأن من الواجبات عندهم ما إذا تركه سهوا لم تبطل الصلاة، كما لا تبطل بالزيادة سهوا باتفاق العلماء، ولو زاد عمدا لبطلت الصلاة. لكن مالكا وأحمد في المشهور عنهما يقولان: ما كان واجبا إذا تركه عمدا بطلت صلاته وإذا تركه سهوا فمنه ما يُبطل الصلاة ومنه ما ينجبر بسجود السهو، فترك الركوع والسجود والقراءة يبطل الصلاة مطلقا، وترك التشهد الأول عندهما يبطل الصلاة عمده ويجب السجود لسهوه. وأما أبو حنيفة فيقول: الواجب الذي ليس بفرض- كالفاتحة- إذا تركه كان مسيئا ولا يبطل الصلاة. والشافعي لا يفرق في الصلاة بين الركن والواجب، ولكن فرق بينهما في الحج هو وسائر الأئمة. وقال أبو عمر بن عبد البر: وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي "هل تعلم سورة ما أنزل الله لا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها؟" **فمعناه مثلها في جمعها لمعاني الخير، لأن فيها الثناء على الله عز وجل بما هو أهله وما يستحقه من الحمد الذي هو له حقيقة لا لغيره، لأن كل نعمة وخير منه لا من سواه فهو الخالق الرازق لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع وهو محمود على ذلك وإن حمد غيره فإليه يعود الحمد، وفيها التعظيم له وأنه الرب للعالم أجمع ومالك الدنيا والآخرة وهو المعبود والمستعان، وفيها تعليم الدعاء والهدى ومجانبة طريق من ضل وغوى، والدعاء لُباب العبادة، فهي أجمع سورة للخير ليس في الكتب مثلها على هذه الوجوه.**

ومن هذا الباب ما في الكتاب والسنة من **تفضيل القرآن على غيره من كلام الله**، التوراة والإنجيل وسائر الكتب، وأن السلف كلهم كانوا مقرين بذلك ليس فيهم من يقول الجميع كلام الله فلا يفضل القرآن على غيره. قال الله تعالى:{الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني}، فأخبر أنه أحسن الحديث، وقال تعالى:{نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين}. "وأحسن القصص" قيل: المعنى نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص كما يقال نكلمك أحسن التكليم ونبين لك أحسن البيان. قال الزجاج: نحن نبين لك أحسن البيان. والقاص الذي يأتي بالقصة على حقيقتها، قال: وقوله:{بما أوحينا إليك هذا القرآن} أي بوحينا إليك هذا القرآن، وعلى هذا القول فهو كقوله: نقرأ عليك أحسن القراءة، ونتلوا عليك أحسن التلاوة. والثاني أن المعنى نقص عليك أحسن ما يُقص، أي أحسن الأخبار المقصوصات، كما قال في السورة الأخرى:{الله نزل أحسن الحديث}، وقال:{ومن أصدق من الله قيلا}. ويدل على ذلك قوله في قصة موسى:{فلما جاءه وقص عليه القصص}، وقوله:{لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب}، المراد خبرهم ونبؤهم وحديثهم. وليس القَصص بالفتح جمع قصة كما يظنه بعض العامة. فإن ذلك يقال في قِصص بالكسر واحده قصة، والقصة هي الأمر والحديث الذي يقص وجمعه قِصص بالكسر. وقوله:{نحن نقص عليك

أحسن القَصص} بالفتح لم يقل أحسن القِصص بالكسر، ولكن بعض الناس ظنوا أن المراد أحسن القِصص بالكسر، وأن تلك القصة قصة يوسف وذكر هذا طائفة من المفسرين. ثم ذكروا: لم سميت أحسن القصص؟ فقيل: لأنه ليس في القرآن قِصة تتضمن من العبر والحكم والنكت ما تتضمن هذه القصة. وقيل: لامتداد الأوقات بين مبتداها ومنتهاها. وقيل لحسن محاورة يوسف وإخوته وصبره على أذاهم وإغضائه عن ذكر ما تعاطوه عند اللقاء وكرمه في العفو. وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والإنس والجن والأنعام والطير وسير الملوك والمماليك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء ومكرهن وحيلهن، وفيها أيضا ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، فصارت أحسن القصص لما فيها من المعاني والفوائد التي تصلح للدين والدنيا. وقيل "أحسن" بمعنى أعجب. والذين يجعلون قصة يوسف أحسن القصص منهم من يعلم أن "القَصص" بالفتح هو النبأ والخبر، ويقولون هي أحسن الأخبار والأنباء، وكثير منهم يظن أن المراد أحسن القِصص بالكسر، وهؤلاء جهال بالعربية، وكلا القولين خطأ وليس المراد بقوله:{أحسن القصص} قصة يوسف وحدها، بل هي مما قصه الله ومما يدخل في أحسن القصص. ولهذا قال تعالى في آخر السورة:{وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون}{حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين}{لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون}. فبين أن العبرة في قصص المرسلين، وأمر بالنظر في عاقبة من كذَّبهم وعاقبتهم بالنصر. ومن المعلوم أن قصة موسى وما جرى له مع فرعون وغيره أعظم وأشرف من قصة يوسف بكثير كثير، ولهذا هي أعظم قصص الأنبياء التي تُذكر في القرآن، ثناها الله أكثر من غيرها وبسطها وطولها أكثر من غيرها. بل قصص سائر الأنبياء، كنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم من المرسلين، أعظم من قصة يوسف، ولهذا ثنى الله تلك القصص في القرآن ولم يثن قصة يوسف، وذلك لأن الذين عادوا يوسف لم يعادوه على الدين بل عادوه عداوة دنيوية وحسدوه على محبة أبيه له وظلموه فصبر واتقى الله، وابتُلي صلوات الله عليه بمن ظلمه وبمن دعاه إلى الفاحشة فصبر واتقى الله في هذا وفي هذا، وابتُلي أيضا بالمُلك، فابتُلي بالسراء والضراء فصبر واتقى الله في هذا وهذا، فكانت قصته من أحسن القصص، وهي أحسن من القصص التي لم تقص في القرآن، فإن الناس قد يُظلمون ويُحسدون ويُدعوَن إلى الفاحشة ويُبتلون بالملك، لكن ليس من لم يذكر في القرآن ممن اتقى الله وصبر مثل يوسف، ولا فيهم من كانت عاقبته أحسن العواقب في الدنيا والآخرة مثل يوسف. فقوله تعالى:{نحن نقص عليك أحسن القصص} يتناول كل ما قصه في كتابه، فهو أحسن مما لم يقصه، ليس المراد أن قصة يوسف أحسن ما قُص في القرآن. لكن المصاب بمصيبة سماوية تَصْبُر نفسه ما لا تصبر نفس من ظلمه الناس، فإن ذاك يستشعر أن الله هو الذي فعل به هذا فتيأس نفسه من الدفع والمعاقبة وأخذ الثأر، بخلاف المظلوم الذي ظلمه الناس فإن نفسه تستشعر أن ظالمه يمكن دفعه وعقوبته وأخذ ثأره منه، فالصبر على هذه المصيبة أفضل وأعظم كصبر يوسف صلوات الله عليه وسلامه، وهذا يكون لأن صاحبه يعلم أن الله قدر ذلك فيصبر على ذلك كالمصائب السماوية ويكون أيضا لينال ثواب الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين، وليسلم قلبه من الغل للناس. وكلا النوعين يشترك في أن صاحبه يستشعر أن ذلك بذنوبه وهو مما يُكفر الله به سيئاته، ويستغفر ويتوب، وأيضا فيرى أن ذلك الصبر واجب عليه وأن الجزع مما يعاقَب عليه. **وإن ارتقى إلى الرضا رأى أن الرضا جنة الدنيا ومُستراح العابدين وباب الله الأعظم**.

وإن رأى ذلك نعمة لما فيه من صلاح قلبه ودينه وقربه إلى الله وتكفير سيئاته وصونه عن ذنوب تدعوه إليها شياطين الإنس والجن شكر الله على هذه النعم. فالمصائب السماوية والآدمية تشترك في هذه الأمور، ومعرفة الناس بهذه الأمور وعلمهم بها هو من فضل الله يمن به على من يشاء من عباده. ولهذا كانت أحوال الناس في المصائب وغيرها متباينة تباينا عظيما. ثم إذا شهد العبد القدر وأن هذا أمر قدره الله وقضاه وهو الخالق له فهو مع الصبر، يُسلِم للرب القادر المالك الذي يفعل ما يشاء وهذا حال الصابر، وقد يُسلِم تسليمه للرب المحسن المدبر له بحسن اختياره الذي "لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له"، كما رواه مسلم في صحيحه عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا تسليم راض لعلمه بحسن اختيار الله له وهذا يورث الشكر. وهذا يكون القضاء خيرا له ونعمة من الله عليه. لكن يكون حمده لله ورضاه بقضائه من حيث عرف الله وأحبه وعبده لاستحقاقه الألوهية وحده لا شريك له، فيكون صبره ورضاه وحمده من عبادته الصادرة عن هذه المعرفة والشهادة.

والسلف كانوا مقرين بأن القرآن أحسن الحديث وأحسن القصص، كما أنه المهيمن على ما بين يديه من كتب السماء، فكيف يقال: إن كلام الله كله لا فضل لبعضه على بعض؟... ولهذا كان الصحابة ينهون عن اتباع كتب غير القرآن. وهكذا القرآن فإنه قرر ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر وزاد ذلك بيانا وتفصيلا. وبَيَّن الأدلة والبراهين على ذلك وقرر نبوة الأنبياء كلهم ورسالة المرسلين وقرر الشرائع الكلية التي بعثت بها الرسل كلهم، وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين وبين عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتبعين لها، وبين ما حُرِف منها وبُدل وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدمة، وبين أيضا ما كتموه مما أمر الله ببيانه، وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن فصارت له الهيمنة على ما بين يديه من الكتب من وجوه متعددة، فهو شاهد بصدقها وشاهد بكذب ما حُرف منها، وهو حاكم بإقرار ما أقره الله ونسخ ما نسخه، فهو شاهد في الخبريات حاكم في الأمريات. وكذلك معنى "الشهادة" و "الحكم" يتضمن إثبات ما أثبته الله من صدق ومحكم، وإبطال ما أبطله من كذب ومنسوخ. ثم إنه معجز في نفسه لا يقدر الخلائق أن يأتوا بمثله، ففيه دعوة الرسول وهو آية الرسول وبرهانه على صدقه ونبوته، وفيه ما جاء به الرسول وهو نفسه برهان على ما جاء به، وفيه أيضا من ضرب الأمثال وبيان الآيات على تفضيل ما جاء به الرسول ما لو جُمع إليه علوم جميع العلماء لم يكن ما عندهم إلا بعض ما في القرآن... والمقصود أن نبين أن مثل هذا هو من العلم المستقر في نفوس الأمة السابقين والتابعين ولم يُعرف قط أحد من السلف رد مثل هذا ولا قال: لا يكون كلام الله بعضه أشرف من بعض، فإنه كله من صفات الله ونحو ذلك.

قال ابن عقيل: وأما قولهم إن القرآن في نفسه لا يتخاير ولا يتفاضل، فعُلم أنه لم يُرد به الخير الذي هو الأفضلية فليس كذلك، فإن توحيد الله الذي في "سورة الإخلاص" وما ضمنها من نفي التجزؤ والانقسام أفضل من "تبت" المتضمنة ذم أبي لهب وذم زوجته، إن شئت في كون المدح أفضل من القدح، وإن شئت في الإعجاز فإن تلاوة غيرها من الآيات التي تظهر منها الفصاحة والبيان أفضل، وليس من حيث كان المتكلم واحدا لا يكون التفاضل لمعنى يعود إلى الكلام ثانيا، كما أن المُرسِل واحد لذي النون وإبراهيم وإبراهيم أفضل من ذي النون. وكذلك غير هؤلاء صرحوا بأن بعض القرآن قد يكون خيرا من بعض، وممن ذكر ذلك أبو حامد الغزالي في كتابه "جواهر القرآن"، قال: لعلك تقول قد توجه قصدك في هذه التنبيهات إلى تفضيل بعض آيات القرآن على بعض، والكل كلام الله فكيف يفارق بعضها بعضا؟ وكيف يكون بعضها

أشرف من بعض؟ فاعلم أن نور البصيرة إن كان لا يرشدك إلى الفرق بين آية الكرسي وآية المداينات، وبين سورة الإخلاص وسورة تبت، وترتاع من اعتقاد الفرق نفسك الخوارة المستغرقة في التقليد، فقلد صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فهو الذي أُنزل عليه القرآن، وقال: "قلب القرآن يس"، وقد دلت الأخبار على شرف بعضه على بعض، فقال: "فاتحة الكتاب أفضل سور القرآن"، وقال: "آية الكرسي سيدة آي القرآن"، وقال:"قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن". والأخبار الواردة في فضائل قوارع القرآن وتخصص بعض السور والآيات بالفضل وكثرة الثواب في تلاوتها لا تحصى فاطلبه من كتب الحديث إن أردت. وممن ذكر كلام الناس في ذلك وحكى هذا القول عمن حكاه من السلف القاضي عياض في "شرح مسلم"، قال في قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي: "أتدري أي آية من كتاب الله أعظم؟ وذكر آية الكرسي" فيه حجة لتفضيل بعض القرآن على بعض. قال: وذلك راجع إلى عظم أجر قارئي ذلك وجزيل ثوابه على بعضه أكثر من سائره. قال: وهذا مما اختلف أهل العلم فيه فأبى ذلك الأشعري وابن الباقلاني وجماعة من الفقهاء وأهل العلم **لأن مقتضى الأفضل نقص المفضول عنه وكلام الله لا يتبعض**. قالوا: وما ورد من ذلك بقوله:"أفضل" و "أعظم" لبعض الآي والسور فمعناه عظيم وفاضل. قال: وقيل: كانت آية الكرسي أعظم لأنها جمعت أصول الأسماء والصفات من الإلهية والحياة والوحدانية والعلم والملك والقدرة والإرادة...

(**فصل**) وفي الجملة فدلالة النصوص النبوية والآثار السلفية والأحكام الشرعية والحجج العقلية على أن كلام الله بعضه أفضل من بعض هو من الدلالات الظاهرة المشهورة. وأيضا فإن القرآن وإن كان كله كلام الله، وكذلك التوراة والإنجيل والأحاديث الإلهية التي يحكيها الرسول عن الله تبارك وتعالى، كقوله:{يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا}، الحديث، وكقوله:{من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي} وأمثال ذلك، هي وإن اشتركت في كونها كلام الله فمعلوم أن الكلام له نسبتان: نسبة إلى المتكلِم به ونسبة إلى المتكلَم فيه. فهو يتفاضل باعتبار النسبتين وباعتبار نفسه أيضا، مثل الكلام الخبري له نسبتان: نسبة إلى المتكلم المُخبِر ونسبة إلى المخبَر عنه المتكلَم فيه. فـ{قل هو الله أحد}و{تبت يدا أبي لهب} كلاهما كلام الله وهما مشتركان من هذه الجهة، لكنهما متفاضلان من جهة المتكَلَّم فيه المخبَر عنه. **فهذه كلام الله وخبره الذي يُخبِر به عن نفسه وصفته التي يصف بها نفسه وكلامه الذي يتكلم به عن نفسه**، وهذه كلام الله الذي يتكلم به عن بعض خلقه ويخبر به عنه ويصف به حاله، **وهما في هذه الجهة متفاضلان بحسب تفاضل المعنى المقصود بالكلامين**. ألا ترى أن المخلوق يتكلم بكلام هو كله كلامه، لكن كلامه الذي يذكر به ربه أعظم من كلامه الذي يذكر به بعض المخلوقات والجميع كلامه؟ فاشتراك الكلامين بالنسبة إلى المتكلِم لا يمنع تفاضلهما بالنسبة إلى المتكلم فيه، سواء كانت النسبتان أو إحداهما توجب التفضيل أو لا توجبه. فليس الخبر المتضمن للحمد لله والثناء عليه بأسمائه الحسنى كالخبر المتضمن لذكر أبي لهب وفرعون وإبليس، وإن كان هذا كلاما عظيما معظما تكلم الله به. وكذلك ليس الأمر بالتوحيد والإيمان بالله ورسوله وغير ذلك من أصول الدين الذي أمرت به الشرائع كلها، وغير ذلك مما يتضمن الأمر بالمأمورات العظيمة والنهي عن الشرك وقتل النفس والزنا ونحو ذلك مما حرمته الشرائع كلها وما يحصل معه فساد عظيم، كالأمر بلعق الأصابع وإماطة الأذى عن اللقمة الساقطة والنهي عن القران (قرن بين الشيئين: جمع بينهما) في التمر. ولو كان الأمران واجبين فليس الأمر بالإيمان بالله ورسوله كالأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد والأمر بالإنفاق على الحامل

وإيتائها أجرها إذا أرضعت. ولهذا ذهب جمهور الفقهاء إلى تفاضل أنواع الإيجاب والتحريم، وقالوا إن إيجاب أحد الفعلين قد يكون أبلغ من إيجاب الآخر، وتحريمه أشد من تحريم الآخر، فهذا أعظم إيجابا وهذا أعظم تحريما... والتحقيق أن نفس المحبة والرضا والبغض والإرادة والكراهة والطلب والاقتضاء ونحو ذلك من المعاني تتفاضل، وتتفاضل الألفاظ الدالة عليها. ونفس حب العباد لربهم يتفاضل كما قال تعالى:{والذين آمنوا أشد حبا لله}، ونفس حب الله لهم يتفاضل أيضا، وبعض الأعمال أحب إلى الله من بعض والقول... فعُلم بذلك أن معاني الكلام قد تتفاضل في نفسها كما قد تتماثل، وتبين بذلك أن ما تضمنه الأمر والنهي من المعاني التي تدل عليها صيغة الأمر، سواء سميت طلبا أو اقتضاء أو استدعاء أو إرادة أو محبة أو رضا أو غير ذلك، فإنها متفاضلة بحسب تفاضل المأمور به وما تضمنه الخبر من أنواع العلوم والاعتقادات والأحكام النفسانية، فهي متفاضلة في نفسها بحسب تفاضل المخبر عنه... **وغير جائز أن يكون من القرآن شيء خيرا من شيء، لأن جميعه كلام الله، ولا يجوز في صفات الله تعالى أن يقال بعضها أفضل من بعض أو بعضها خير من بعض. وطرد ذلك في أسماء الله فمُنع أن يكون بعض أسمائه أعظم أو أفضل أو أكبر من بعض، وقال معنى الاسم الأعظم: العظيم وكلها سواء في العظمة**، وإنما يتفاضل حال الناس حين الدعاء فيكون الأعظم بحسب حال الدعاء لا أنه في نفسه أعظم. وهكذا من قال من أصحاب مالك أو الشافعي أو أحمد عن أهل السنة أن القرآن لا يفضل بعضه على بعض، فإنما مستندهم أن أهل السنة متفقون على أن القرآن كلام الله غير مخلوق...

(**فصل**) وإذا عُلم ما دل عليه الشرع مع العقل واتفاق السلف من أن بعض القرآن أفضل من بعض وكذلك بعض صفاته أفضل من بعض، بقي الكلام في كون{قل هو الله أحد} تعدل ثلث القرآن ما وجه ذلك؟ وهل ثوابها بقدر ثواب ثلث القرآن؟ وإذا قدر أن الأمر كذلك فما وجه قراءة سائر القرآن؟ فيقال: أما الأول فقد قيل فيه وجوه أحسنها، والله أعلم، الجواب المنقول عن الإمام أبي العباس ابن سريج فعن أبي الوليد القرشي أنه سأل أبا العباس بن سريج عن معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم {قل هو الله أحد} تعدل ثلث القرآن. فقال معناه: **أُنزل القرآن على ثلاثة أقسام: ثلث منها الأحكام، وثلث منها وعد ووعيد، وثلث منها الأسماء والصفات، وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات**. وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزي في هذا الحديث ثلاثة أوجه: بدأ بهذا الوجه فروى قول ابن سريج هذا، قال: سمعت أبا الوليد حسان بن محمد الفقيه يقول: سألت أبا العباس ابن سريج قلت: ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم {قل هو الله أحد} تعدل ثلث القرآن؟ قال: إن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام: فثلث أحكام وثلث وعد ووعيد وثلث أسماء وصفات، وقد جمع في{قل هو الله أحد} أحد الأثلاث وهو الصفات، فقيل إنها تعدل ثلث القرآن. الوجه الثاني من الوجوه الثلاثة التي ذكرها أبو الفرج ابن الجوزي أن **معرفة الله هي معرفة ذاته ومعرفة أسمائه وصفاته ومعرفة أفعاله**، فهذه السورة تشتمل على معرفة ذاته، إذ لا يوجد شيء إلا وُجد من شيء ما خلا الله، فإنه ليس له كفء ولا له مثل. قال: والوجه الثالث أن المعنى: من عمل ما تضمنته من الإقرار بالتوحيد والإذعان للخالق كان كمن قرأ ثلث القرآن ولم يعمل بما تضمنته. قال ابن عقيل: **ولا يجوز أن يكون المعنى: من قرأها فله أجر ثلث القرآن، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات"**. قلت: كلا الوجهين ضعيف. أما الأول فيدل على ضعفه وجوه: الأول أن نقول القرآن ليس كله هو المعرفة المذكورة بل فيه أمر بالأعمال الواجبة، ونهي عن المحرمات، والمطلوب من العباد المعرَّفة الواجبة والعمل الواجب، والأمة كلها متفقة على وجوب الأعمال التي فرضها الله، لم يقل أحد بأنها ليست من الواجبات. وإن كان

طائفة من الناس نازعوا في كون الأعمال من الإيمان فلم ينازعوا في أن الله فرض الصلوات الخمس وغيرها من شرائع الإسلام وحرم الفواحش:{ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون}، وإذا كان كذلك وقُدر أن سورة من السور تضمنت ثلث المعرفة لم يكن هذا ثلث القرآن. الثاني أن يقال: قول القائل معرفة ذاته ومعرفة أسمائه وصفاته ومعرفة أفعاله، إن أراد بذلك أن ذاته تعرف بدون معرفة شيء من أسمائه وصفاته الثبوتية والسلبية فهذا ممتنع، ولو قُدر إمكان ذلك أو فرض العبد في نفسه ذاتا مجردة عن جميع القيود السلبية والثبوتية فليس ذاك معرفته بالله البتة، ولا هو رب العالمين ذات مجردة عن كل أمر سلبي أو ثبوتي... ولهذا كان كل ما وصف به الرب نفسه من صفاته فهي صفات مختصة به يمتنع أن يكون له فيها مشارك أو مماثل، فإن ذاته المقدسة لا تماثل شيئا من الذوات وصفاته مختصة به فلا تماثل شيئا من الصفات، بل هو سبحانه أحد صمد{لم يلد ولم يولد}{ولم يكن له كفوا أحد} فاسمه "الأحد" دل على نفي المشاركة والمماثلة، واسمه "الصمد" دل على أنه مستحق لجميع صفات الكمال. والمقصود هنا أن صفات التنزيه يجمعها هذان المعنيان المذكوران في هذه السورة، أحدهما نفي النقائص عنه، وذلك من لوازم إثبات صفات الكمال، فمن ثبت له الكمال التام انتفى النقصان المضاد له، والكمال من مدلول اسمه الصمد . والثاني أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال الثابتة، وهذا من مدلول اسمه الأحد. فهذان الاسمان العظيمان، الأحد الصمد، يتضمنان تنزيهه عن كل نقص وعيب، وتنزيهه في صفات الكمال أن لا يكون له مماثل في شيء منها. واسمه الصمد يتضمن إثبات جميع صفات الكمال فتضمن ذلك إثبات جميع صفات الكمال ونفي جميع صفات النقص، **فالسورة تضمنت كل ما يجب نفيه عن الله، وتضمنت أيضا كل ما يجب إثباته** من وجهين: من اسمه الصمد، ومن جهة أن ما نُفي عنه من الأصول والفروع والنظراء مستلزم ثبوت صفات الكمال أيضا. فإن كل ما يُمدح به الرب من النفي فلا بد أن يتضمن ثبوتا... وهذا كما يذكره سبحانه في آية الكرسي مثل قوله:{الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم}، فنفْيِ أخذ السِنة والنوم له مستلزم لكمال حياته وقيوميته، فإن النوم ينافي القيومية والنوم أخو الموت، ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون. وكل وصف يشترك فيه الوجود والعدم لا يستلزم أمرا ثبوتيا فلا يكون فيه مدح إذ هو عدم محض بخلاف ما إذا قيل لا يحاط به فإنه يدل على عظمة الرب جل جلاله، وأن العباد مع رؤيتهم له لا يحيطون به رؤية، كما أنهم مع معرفته لا يحيطون به علما، وكما أنهم مع مدحه والثناء عليه لا يحيطون ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه المقدسة. ولهذا قال أفضل الخلق وأعلمهم: "لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك". والمقصود هنا الكلام على معنى كون{قل هو الله أحد} تعدل ثلث القرآن وبيان أن الصواب القول الأول. وأما القول الثالث وهو المراد به أن من عمل بما تضمنته كان كمن قرأ ثلث القرآن ولم يعمل بما تضمنته، فهذا أيضا ضعيف، وما نفاه من المعادلة فهو مبني على قول من اعتبر في مقدار الأجر كثرة الحروف، وهو قول باطل، وذلك أن العمل بها إن أراد به العمل الواجب من التصديق بمضمونها وتوحيد الله فهذا أجره أعظم من أجر من قرأ القرآن جملة ولم يعمل بذلك، فإنه إن خلا عن الإيمان بمضمون القرآن فهو منافق، وإن خلا عما يجب عليه من العمل فهو فاسق، ومعلوم أن هذا لو قرأ القرآن عشر مرات لم يكن أجره مثل أجر المؤمن المتقي. وقد ذكر أبو حامد الغزالي وجها آخر غير هذه الثلاثة فقال في كتابه: "**جواهر القرآن ودرره**": أما قوله:"{قل هو الله أحد} تعدل ثلث القرآن" ما أراك تفهم وجه ذلك فتارة تقول: ذكر هذا الترغيب في التلاوة وليس المعنى به التقدير وحاشا منصب النبوة عن ذلك، وتارة تقول: هذا بعيد عن الفهم والتأويل فإن آيات القرآن تزيد على ستة آلاف آية فهذا القدر كيف يكون ثلثها؟ وهذا لقلة

معرفتك بحقائق القرآن ونظرك إلى ظاهر ألفاظه، فتظن أنها تَعْظُم وتَكْثُر بطول الألفاظ وتَقْصُر بقصرها. وذلك كظن من يؤثر الدراهم الكثيرة على الجوهرة الواحدة نظرا إلى كثرتها. فاعلم أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن قطعا وترجع إلى الأقسام الثلاثة التي ذكرناها في مهمات القرآن وهي: معرفة الله ومعرفة الآخرة ومعرفة الصراط المستقيم. فهذه المعارف الثلاثة هي المهمة والباقي توابع. وسورة الإخلاص تشتمل على واحدة من الثلاث، **وهي معرفة الله وتقديسه وتوحيده عن مشارك في الجنس والنوع، وهو المراد بنفي الأصل والفرع والكفء**. والوصف بالصمد يُشعر بأنه السيد الذي لا يُقصد في الوجود للحوائج سواه. نعم ليس فيها حديث الآخرة والصراط المستقيم. فلذلك تعدل ثلث القرآن، أي ثلث الأصول من القرآن، كما قال: "الحج عرفة"، أي هو الأصل والباقي تبع. قلت: آيات القرآن نوعان، علمية وعملية، وفي الآيات ما يجمع الأمرين. وأبو حامد جمع العلميات المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله دون ما يتعلق باليوم الآخر والقصص وسماها "جواهر القرآن"، وجمع العمليات وسماها "درر القرآن". وجعل الشطر الأول من "الفاتحة" من الجواهر والثاني من الدرر، والآيات التي تجمع المعنيين يذكرها في أغلب النوعين عليها. ومجموع ما ذكره من القسمين ربع آيات القرآن نحو ألف وخمسمائة آية. وجعل معاني القرآن ستة أصناف: ثلاثة أصول وثلاثة توابع. فذكر أن القرآن هو البحر المحيط ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين. وقال: **سر القرآن ولبابه الأصفى ومقصده الأقصى دعوة العباد إلى الجبار الأعلى رب الآخرة والأولى وخالق السموات العلى والأرضين السفلى** . فالثلاثة المهمة: تعريف المدعو إليه، وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه، وتعريف الحال عند الوصول إليه. وأما الثلاثة المعنية فأحدها: أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله فيهم، وسره ومقصوده التشويق والترغيب، وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة وكيفية قمع الله لهم وتنكيله بهم، وسره ومقصوده الاعتبار والترهيب. وثانيها: حكاية أقوال الجاحدين وكشف فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحاجة على الحق، ومقصوده وسره في جنبة الباطل الإفصاح والتحذير والتنفير وفي جنبة الحق الإيضاح والتثبيت والتقرير. وثالثها: تعريف عِمارة منازل الطريق وكيفية أخذ الزاد والراحلة والأهبة للاستعداد. قلت: ما ذكره من أن أصول الإيمان ثلاثة فهو حق كما ذكره، ولا بد من الثلاثة في كل ملة ودين، كما قال الله تعالى:{إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون}، ونحو ذلك في سورة المائدة. فذكر هذه الأصول الثلاثة: الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح. وأما الثلاثة الأخر التابعة فهي داخلة في هذه الثلاثة. فإن ما في القرآن من ذكر أحوال السعداء والأشقياء في الآخرة فهو من تفضيل الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من عمارة الطريق فهو من العمل الصالح، وما فيه من المجادلة والمحاجة فذاك من تمام الإخبار بالثلاثة. فإنه إذا أخبر بالثلاثة ذكر الآيات والأدلة المثبتة لذلك وذكر شبه الجاحدين وبين فسادها. وقد ذكر أبو حامد ذلك فقال: القسم الجائي لمحاجة الكفار ومجادلتهم وإيضاح مخازيهم بالبرهان الواضح وكشف أباطيلهم وتخاييلهم. وأباطيلهم ثلاثة أنواع: الأول ذِكر الله بما لا يليق به من أن الملائكة بناته وأن له ولدا شريكا وأنه ثالث ثلاثة. الثاني ذِكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر وكاهن وشاعر وإنكار نبوته. وثالثها إنكار اليوم الآخر وجحد البعث والنشور والجنة والنار وإنكار عاقبة الطاعة والمعصية. وأما ما فيه من الإخبار بأحوال المؤمنين والكفار في الدنيا –وهو الذي أراده أبو حامد بذكر أحوال المستجيبين والناكبين– فهذا من تمام الأدلة والآيات. فإن هذا أمر شوهد في الدنيا ورئيت آثاره وتواترت أخباره ليس هو مما بعد الموت الذي هو غيب عن العباد. ولهذا يذكر سبحانه هذا في معرض الاحتجاج والاستدلال مع ما في ذلك من الموعظة كقوله:{لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب}،{قد

كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار}، وقوله:{هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار}، وقوله:{قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين}، وقوله:{فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد} {أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور}، وقوله:{أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات}، الآيات. وقوله تعالى لما ذكر قصة قوم لوط:{فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل}{إن في ذلك لآيات للمتوسمين}{وإنها لبسبيل مقيم}، والمتوسم: المستدل بالسمة والسيما وهي العلامة، قال تعالى:{ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول}. فمعرفة المنافقين في لحن القول ثابتة مقسم عليها لكن هذا يكون إذا تكلموا، وأما معرفتهم بالسيما فموقوف على مشيئة الله، فإن ذلك أُخفي. وفي الحديث الذي رواه الترمذي وحسنه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله"، ثم قرأ قوله تعالى:{إن في ذلك لآيات للمتوسمين}. قال مجاهد وابن قتيبة للمتفرسين، قال ابن قتيبة: يقال توسمت في فلان الخير أي تبينته، وقال الزجاج: المتوسمون في اللغة النظار المثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء يقال توسمت في فلان كذا أي عرفت وقوله. وكل هذا صحيح فإن المتوسم يجمع هذا كله. ثم قال تعالى:{وإنها لبسبيل مقيم}، ثم ذكر قصة أصحاب الأيكة. ثم قال:{وإنهما لبإمام مبين} أي بطريق متبين للناس واضح. وكذلك في موضع آخر لما قال:{فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين}{فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين}{وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم}. وقال في سفينة نوح:{ولقد تركناها آية فهل من مدكر}، فأخبر أنه أبقى آيات وهي العلامات والدلالات، فدل ذلك على أن ما يخصه من أخبار المؤمنين وحسن عاقبتهم في الدنيا وأخبار الكفار وسوء عاقبتهم في الدنيا هو من باب الآيات والدلالات التي يُستدل بها ويُعتبر بها علما ووعظا، فيفيد معرفة صحة ما أخبرت به الرسل، ويفيد الترغيب والترهيب، ويدل ذلك على أن الله يرضى عن أهل طاعته ويكرمهم ويغضب على أهل معصيته ويعاقبهم، كما يُستدل بمخلوقاته العامة على قدرته، فإن الفعل يستلزم قدرة الفاعل... والمقصود أن هذا الذي ذكره في {قل هو الله أحد} أحسن من قول كثير من الناس فيها. وقد ذكر القاضي عياض أقوالا في كون {قل هو الله أحد} تعدل ثلث القرآن، وكذلك المازري قبله. قال: قال الإمام يعني، أبا عبد الله المازري، قيل معنى ذلك أن القرآن على ثلاثة أنحاء: قصص وأحكام وأوصاف الله جلت قدرته. و{قل هو الله أحد} تشتمل على ذكر الصفات، فكانت ثلثا من هذه الجهة. قال: وربما أسعد هذا التأويل ظاهر الحديث الذي ذكر أن الله جزأ القرآن.

وسنبين إن شاء الله أنه **إذا كانت {قل هو الله أحد} تعدل ثلث القرآن لم يلزم من ذلك أنها أفضل من الفاتحة، ولا أنها يكتفي بتلاوتها ثلاث مرات عن تلاوة القرآن، بل قد كره السلف أن تقرأ إذا قرئ القرآن كله إلا مرة واحدة كما كتبت في المصحف، فإن القرآن يُقرأ كما كتب في المصحف لا يزاد على ذلك ولا ينقص منه**. فالمقصود أن من السنة في القرآن أن يُقرأ كما في المصاحف، ولكن إذا قرئت{قل هو الله أحد} مفردة تقرأ ثلاث مرات وأكثر من ذلك،

ومن قرأها فله من الأجر ما يعدل ثلث أجر القرآن. والفاتحة فيها من المنافع ثناء ودعاء مما يحتاج الناس إليه ما لا تقوم {قل هو الله أحد} مقامه في ذلك، وإن كان أجرها عظيما فذلك الأجر العظيم إنما ينتفع به صاحبه مع أجر فاتحة الكتاب، ولهذا لو صلى بها وحدها بدون الفاتحة لم تصح صلاته ولو قدر أنه قرأ القرآن كله إلا الفاتحة لم تصح صلاته لأن معاني الفاتحة فيها الحوائج الأصلية التي لا بد للعباد منها، وقد بُسط الكلام عليها في غير هذا الموضع، وبين أن **ما في الفاتحة من الثناء والدعاء وهو قول:{اهدنا الصراط المستقيم}{صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} هو أفضل دعاء دعا به العبد ربه، وهو أوجب دعاء دعا به العبد ربه، وأنفع دعاء دعا به العبد ربه، فإنه يجمع مصالح الدين والدنيا والآخرة، والعبد دائما محتاج إليه لا يقوم غيره مقامه فلو حصل له أجر تسعة أعشار القرآن –دع ثلثه– ولم يحصل له مقصود هذا الدعاء لم يقم مقامه ولم يسد مسده**. ولهذا قال الشيخ أبو مدين رحمه الله: أشرف العلوم علم التوحيد وأنفع العلم أحكام العبيد. فليس الأفضل الأشرف هو الذي ينفع في وقت بل الأنفع في كل وقت ما يحتاج إليه العبد في ذلك الوقت، وهو فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه. ولهذا يقال: المفضول في مكانه وزمانه أفضل من الفاضل، إذ دل الشرع على أن الصلاة أفضل من القراءة، والقراءة أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء فهذا أمر مطلق. وقد تُحرَّم الصلاة في أوقات فتكون القراءة أفضل منها في ذلك الوقت. والتسبيح في الركوع والسجود هو المأمور به والقراءة منهي عنها، ونظائر هذا كثيرة. فهكذا يُعلم الأمر في فضل{قل هو الله أحد} وغيرها، فقراءة الفاتحة في أول الصلاة أفضل من قراءتها بل هو الواجب، والاحتزاء بها وحدها لا يمكن بل تبطل معه الصلاة. ولهذا وجب التقرب بالفرائض قبل النوافل، والتقرب بالنوافل إنما يكون تقربا إذا فُعلت الفرائض... وقد بينا أن أحسن الوجوه أن معاني القرآن ثلاثة أنواع: توحيد وقصص وأحكام. وهذه السورة صفة الرحمن فيها التوحيد وحده وذلك لأن القرآن كلام الله. والكلام نوعان: إما إنشاء وإما إخبار، والإخبار إما خبر عن الخالق وإما خبر عن المخلوق. فالإنشاء هو الأحكام كالأمر والنهي. والخبر عن المخلوق هو القصص. **والخبر عن الخالق هو ذكر أسمائه وصفاته. وليس في القرآن سورة هي وصف الرحمن محضا إلا هذه السورة**. وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سرية فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ {قل هو الله أحد} فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "سلوه لأي شيء يصنع ذلك"، فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أخبروه أن الله يحبه". وقال البخاري في "باب الجمع بين السورتين في ركعة": وقال عبيد الله عن ثابت عن أنس: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء فكان كلما افتتح سورة يقرأ لهم بها في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ {قل هو الله أحد} حتى يفرغ منها ثم يقرأ بسورة أخرى معها فكان يصنع ذلك في كل ركعة فكلمه أصحابه وقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بأخرى، فإما أن تقرأ بها وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى. فقال: ما أنا بتاركها إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت وإن كرهتم ذلك تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غيره. فلما أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر فقال: "يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك وما يحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة". قال: إني أحبها. قال: "حبك إياها أدخلك الجنة". وقول النبي صلى الله عليه وسلم "إنها تعدل ثلث القرآن" حق كما أخبر به، فإنه صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى لم يخرج من بين شفتيه إلا حق. والذين أشكل عليهم هذا القول لهم مأخذان: أحدهما منع تفاضل كلام الله بعضه على بعض وقد تبين ضعفه. الثاني

اعتقادهم أن الأجر يتبع كثرة الحروف، فما كثرت حروفه من الكلام يكون أجره أعظم. قالوا: لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات. أما إني لا أقول {الم} حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف". قالوا ومعلوم أن ثلث القرآن حروفه أكثر بكثير فتكون حسناته أكثر. فيقال لهم: هذا حق كما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ولكن الحسنات فيها كبار وصغار، والنبي صلى الله عليه وسلم مقصوده أن الله يعطي العبد بكل حسنة عشر أمثالها كما قال تعالى:{من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها}، فإذا قرأ حرفا كان ذلك حسنة فيعطيه بقدر تلك الحسنة عشر مرات، لكن لم يقل: إن الحسنات في الحروف متماثلة ... فكذلك حروف القرآن تتفاضل لتفاضل المعاني وغير ذلك، فحروف الفاتحة له بكل حرف منها حسنة أعظم من حسنات حروف من {تبت يدا أبي لهب}، وإذا كان الشيء يعدل غيره فعدَل الشيء –بالفتح– هو مساويه وإن كان من غير جنسه، كما قال تعالى:{أو عدل ذلك صياما}، والصيام ليس من جنس الطعام والجزاء ولكنه يعادله في القدر. وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا"، وقوله تعالى:{ولا يقبل منها عدل} أي فدية، والفدية ما يعدل بالمفدى وإن كان من غير جنسه،{ثم الذين كفروا بربهم يعدلون} أي يجعلون له عدلا أي ندا في الإلهية وإن كانوا يعلمون أنه ليس من جنس الرب سبحانه. **فالقرآن يحتاج الناس إلى ما فيه من الأمر والنهي والقصص، وإن كان التوحيد أعظم من ذلك**. وإذا احتاج الإنسان إلى معرفة ما أُمر به وما نُهي عنه من الأفعال، أو احتاج إلى ما يؤمر به ويعتبر به من القصص والوعد والوعيد لم يسد غيره مسده، فلا يسد التوحيد مسد هذا، ولا تسد القصص مسد الأمر والنهي ولا الأمر والنهي مسد القصص. بل كل ما أنزل الله ينتفع به الناس ويحتاجون إليه. فإذا قرأ الإنسان {قل هو الله أحد} حصل له ثواب بقدر ثواب ثلث القرآن، لكن لا يجب أن يكون الثواب من جنس الثواب الحاصل ببقية القرآن، بل قد يحتاج إلى جنس الثواب الحاصل بالأمر والنهي والقصص فلا تسد {قل هو الله أحد} مسد ذلك ولا تقوم مقامه. فلهذا لو لم يقرأ {قل هو الله أحد} فإنه وإن حصل له أجر عظيم لكن جنس الأجر الذي يحصل بقراءة غيرها لا يحصل له بقراءتها، بل يبقى فقيرا محتاجا إلى ما يتم به إيمانه من معرفة الأمر والنهي والوعد والوعيد ولو قام بالواجب عليه. **فالمعارف التي تُحصَّل بقراءة سائر القرآن لا تحصل بمجرد قراءة هذه السورة، فيكون من قرأ القرآن كله أفضل ممن قرأها ثلاث مرات من هذه الجهة لتنوع الثواب، وإن كان قارئ {قل هو الله أحد} ثلاثا يحصل له ثواب بقدر ذلك الثواب، لكنه جنس واحد ليس فيه الأنواع التي يحتاج إليها العبد**... ومما ينبغي أن يُعلم أن فضل القراءة والذكر والدعاء والصلاة وغير ذلك قد يختلف باختلاف حال الرجل، فالقراءة بتدبر أفضل من القراءة بلا تدبر، والصلاة بخشوع وحضور قلب أفضل من الصلاة بدون ذلك... وإذا عُرف ذلك فقد يكون تسبيح بعض الناس أفضل من قراءة غيره، ويكون قراءة بعض السور من بعض الناس أفضل من قراءة غيره لـ {قل هو الله أحد} وغيرها. والإنسان الواحد يختلف أيضا حاله. فقد يفعل العمل المفضول على وجه كامل فيكون به أفضل من سائر أعماله الفاضلة. وقد غفر الله لبغي لسقيها الكلب كما ثبت ذلك في الصحيحين وهذا لما حصل لها في ذلك العمل من الأعمال القلبية وغيرها. فإذا قيل إن {قل هو الله أحد} يعدل ثوابها ثواب ثلث القرآن، فلا بد من اعتبار التماثل في سائر الصفات، وإلا فإذا اعتبر قراءة غيرها مع التدبر والخشوع بقراءتها مع الغفلة والجهل لم يكن الأمر كذلك. بل قد يكون قول العبد:"سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر" مع حضور القلب واتصافه بمعانيها أفضل من قراءة هذه السورة مع الجهل والغفلة. والناس متفاضلون في فهم هذه السورة وما اشتملت عليه كما أنهم متفاضلون في فهم سائر القرآن.

(**فصل**) وأصل هذه المسألة أن يُعلم أن **التفاضل والتماثل إنما يقع بين شيئين فصاعدا**. إذ الواحد من كل وجه لا يعقل فيه شيء أفضل من شيء. فالتفاضل في صفاته تعالى إنما يُعقل إذا أُثبت له صفات متعددة كالعلم والقدرة والإرادة والمحبة والبغض والرضا والغضب، وكإثبات أسماء له متعددة تدل على معان متعددة، وأُثبت له كلمات متعددة تقوم بذاته، حتى يقال: هل بعضها أفضل من بعض أم لا؟... ولهذا كانت السورة فيها الإسمان: الأحد الصمد، وكل منهما يدل على الكمال. فقوله (أحد) يدل على نفي النظير، وقوله (الصمد) بالتعريف يدل على اختصاصه بالصمدية. ولهذا جاء التعريف في إسمه الصمد دون الأحد، لأن أحدا لا يوصف به في الإثبات غيره بخلاف الصمد، فإن العرب تسمي السيد صمدا. قال يحيى بن أبي كثير: الملائكة تسمى صمدا والآدمي أجوف، فقوله "الصمد" بيان لاختصاصه بكمال الصمدية. وقد ذكرنا تفسير الصمد واشتماله على جميع صفات الكمال كما رواه العلماء من تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وقد ذكره ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهم، في قوله: (الصمد) يقول: السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحليم الذي قد كمل في حلمه، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفؤ وليس كمثله شيء سبحانه الواحد القهار... والمقصود هنا أن صفات الكمال إنما هي في الأمور الموجودة والصفات السلبية إنما تكون كمالا إذا تضمنت أمورا وجودية، ولهذا كان تسبيح الرب يتضمن تنزيهه وتعظيمه جميعا، فقول العبد:"سبحان الله" يتضمن تنزيه الله وبراءته من السوء. وكذلك سائر ما تنزه الرب عنه من الشركاء والأولاد وغير ذلك كقوله تعالى:{أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما}، إلى قوله:{إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا}،{سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا}{تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا}، وقوله تعالى:{سبحان ربك رب العزة عما يصفون}{وسلام على المرسلين}، وغير ذلك. فنفي العيوب والنقائص يستلزم ثبوت الكمال، ونفي الشركاء يقتضي الوحدانية، وهو من تمام الكمال، فإن ما له نظير قد انقسمت صفات الكمال وأفعال الكمال فيه وفي نظيره فحصل له بعض صفات الكمال لا كلها. فالمنفرد بجميع صفات الكمال أكمل ممن له شريك يقاسمه إياها. ولهذا كان أهل التوحيد والإخلاص أكمل حبا لله من المشركين الذين يحبون غيره الذين اتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه. قال تعالى:{ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله}، قد بين فيه أن هذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله تعالى. وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: "أن تجعل لله ندا وهو خلقك". قلت ثم أي؟ قال: "أن تقتل ولدك خشية أن يُطعَم معك". قلت ثم أي؟ قال: "أن تزاني بحليلة جارك". وأنزل الله تعالى تصديق ذلك:{والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون}، الآية. فمن جعل لله ندا يحبه كحب الله فهو ممن دعا مع الله إلها آخر وهذا من الشرك الأكبر. والمقصود هنا أن الشيء إذا انقسم ووقعت فيه الشركة نقص ما يحصل لكل واحد، فإذا كان جميعه لواحد كان أكمل، فلهذا كان حب المؤمنين الموحدين المخلصين لله أكمل...

ففي صحيح مسلم عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أفضل الكلام بعد القرآن أربع –وهن من القرآن– سبحان الله والحمد لله ولا إلا إلا الله والله أكبر"، فأخبر أنها أفضل الكلام بعد القرآن مع كونها من القرآن،

ففضل نفس هذه الأقوال بعد القرآن على سواها. وكذلك في صحيح مسلم أنه سئل: أي الكلام أفضل؟ فقال: "ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده". وفي الموطأ وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إلا إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير"، فأخبر أن هذا الكلام أفضل ما قاله هو والنبيون من قبله. وفي الصحيحين أنه قال: "الإيمان بضع وستون -أو وسبعون- شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله". ومثل هذا كثير في النصوص يفضل العمل على العمل والقول على القول، ويُعلم من ذلك فضل ثواب أحدهما على الآخر. أما تفضيل الثواب بدون تفضيل نفس القول والعمل فلم يرد به نقل ولا يقتضيه عقل، فإنه إذا كان القولان متماثلين من كل وجه، أو العملان متماثلين من كل وجه، كان جعل ثواب أحدهما أعظم من ثواب الآخر ترجيحا لأحد المتماثلين على الآخر بلا مرجح...

الملحق الثاني:

جواهر القرآن

حجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي

الفصل الثاني عشر في أسرار الفاتحة وبيان جملة من حكم الله في خلقه

واذا تفكرت وجدت الفاتحة على ايجازها مشتملة على ثمانية مناهج. فقوله تعالى {بسم الله الرحمن الرحيم} نبأ عن الذات. وقوله {الرحمن الرحيم} نبأ عن صفة من صفات خاصة، وخاصيتها أنها تستدعي سائر الصفات من العلم والقدرة وغيرهما، ثم تتعلق بالخلق وهم المرحومون تعلقا يؤنسهم به ويشوقهم اليه ويرغبهم في طاعته، لا كوصف الغضب لو ذكره بدلا عن الرحمة، فإن ذلك يُحزن ويُخوف ويقبض القلب ولا يشرحه. وقوله {الحمد لله رب العالمين} يشتمل على شيئين، أحدهما أصل الحمد وهو الشكر، وذلك أول الصراط المستقيم وكأنه شطره، فان الإيمان العملي نصفان، نصف صبر ونصف شكر، وفضل الشكر على الصبر كفضل الرحمة على الغضب، فان هذا يصدر عن الارتياح وهزة الشوق وروح المحبة، وأما الصبر على قضاء الله فيصدر عن الخوف والرهبة، ولا يخلو عن الكرب والضيق؛ وسلوك الصراط المستقيم إلى الله تعإلى بطريق المحبة وأعمالها أفضل كثيرا من سلوك طريق الخوف، ولذلك قال رسول الله: "أول ما يدعى إلى الجنة الحمادون لله على كل حال". والثاني قوله تعالى {رب العالمين} إشارة إلى الأفعال كلها، وإضافتها إليه بأوجز لفظ وأتمها إحاطة بأصناف الأفعال لفظ رب العالمين، وأفضل النسبة من الفعل اليه نسبة الربوبية، فان ذلك أتم وأكمل في التعظيم من قولك أعلى العالمين وخالق العالمين. وقوله ثانيا {الرحمن الرحيم} إشارة إلى الصفة مرة أخرى، **ولا تظن أنه مكرر فلا تكرر في القرآن**، إذ حد المكرر ما لا ينطوي على مزيد فائدة، وذكر الرحمة بعد ذكر العالمين وقبل ذكر مالك يوم الدين ينطوي على فائدتين عظيمتين في تفضيل مجاري الرحمة، إحداهما تلتفت إلى خلق رب العالمين، فإنه خلق كل واحد منهم على أكمل أنواعه وأفضلها وآتاه كل ما يحتاج اليه. فأحد العوالم التي خلقها عالم البهائم وأصغرها البعوض والذباب والعنكبوت والنحل،

فانظر إلى البعوض كيف خلق أعضاءها فقد خلق عليها كل عضو خلقه على الفيل حتى خلق له خرطوما مستطيلا حاد الرأس ثم هداه إلى غذائه إلى أن يمص دم الآدمي فتراه يغرز فيه خرطومه ويمص من ذلك التجويف غذاء، وخلق له جناحين ليكونا له آلة الهرب اذا قصد دفعه. وانظر إلى الذباب كيف خلق أعضاءه وخلق حدقتيه مكشوفتين بلا أجفان اذ لا يحتمل رأسه الصغير الأجفان، والأجفان يحتاج اليها لتصقيل الحدقة مما يلحقها من الأقذاء والغبار، وانظر كيف خلق له بدلا عن الأجفان يدين زائدتين فله سوى الأرجل الأربع يدان زائدتان تراه اذا وقع على الإارض لا يزال يمسح حدقتيه بيديه يصقلهما عن الغبار. وانظر إلى العنكبوت كيف خلق أطرافها وعلمها حيلة النسج وكيف علمها حيلة الصيد بغير جناحين اذ خلق لها لعابا لزجا تعلق نفسها به في زاوية وتترصد طيران الذباب بالقرب منها فترمي اليه نفسها فتأخذه وتقيده بخيطها الممدود من لعابها فتعجزه عن إلافلات حتى تأكله أو تدخره. وانظر إلى نسج العنكبوت لبيتها كيف هداها الله نسجه على التناسب الهندسي في ترتيب السدى واللحمة. وانظر إلى النحل وعجائبها التي لا تحصى في جمع الشهد والشمع وننبهك على هندستها في بناء بيتها فإنها تبني على شكل المسدس كيلا يضيق المكان على رفقائها لأنها تزدحم في موضع واحد على كثرتها، ولو بنت البيوت مستديرة لبقي خارج المستديرات فرج ضائعة، فان الدوائر لا تراص وكذلك سائر الأشكال، وأما المربعات فتراص ولكن شكل النحل يميل إلى إلاستدارة فيبقى داخل البيت زوايا ضائعة، كما يبقى في المستدير خارج البيت فرج ضائعة، فلا شكل من الأشكال يقرب من المستدير في التراص غير المسدس، وذلك يعرف بالبرهان الهندسي، فانظر كيف هداه الله خاصية هذا الشكل. وهذا أنموذج من عجائب صنع الله ولطفه ورحمته بخلقه، فان الأدنى بينة على الأعلى. وثانيها تعلقها بقوله{مالك يوم الدين}، فيشير إلى الرحمة في المعاد يوم الجزاء عند الإنعام بالملك المؤبد في مقابلة كلمة "عبادة". وشرح ذلك يطول والمقصود أنه لا مكرر في القرآن، فإن رأيت شيئا مكررا من حيث الظاهر فانظر في سوابقه ولواحقه لتنكشف لك مزيد الفائدة في إعادته. وأما قوله{مالك يوم الدين}، فإشارة إلى الأخرة في المعاد، مع الإشارة إلى معنى الملك وذلك من صفات الجلال. وقول{اياك نعبد واياك نستعين}، يشتمل على ركنين عظيمين أحدهما العبادة مع الإخلاص بالإضافة إليه خاصة، وذلك هو روح الصراط المستقيم؛ والثاني اعتقاد أنه لا يستحق العبادة سواه، وهو لباب عقيدة التوحيد، وذلك بالتبري عن الحول والقوة، ومعرفة أن الله منفرد بإلافعال كلها، وأن العبد لا يستقل بنفسه دون معونته. فقوله{إياك نعبد} إشارة إلى تحلية النفس بالعبادة والإخلاص؛ وقوله{وإياك نستعين} إشارة إلى تزكيتها عن الشرك والإلتفات إلى الحول والقوة. وقد ذكرنا أن مدار سلوك الصراط المستقيم على قسمين، أحدهما التزكية بنفي ما لا ينبغي والثاني التحلية بتحصيل ما ينبغي، وقد اشتمل عليهما كلمتان من جملة الفاتحة. وقوله{إهدنا الصراط المستقيم}، سؤال ودعاء وهو مخ العبادة، وهو تنبيه على حاجة الإنسان إلى التضرع والابتهال إلى الله تعالى وهو روح العبودية، وتنبيه على أن أهم حاجاته الهداية إلى الصراط المستقيم، اذ به السلوك إلى الله تعالى. وأما قوله{صراط الذين أنعمت عليهم}، إلى آخر السورة، **فهو تذكير بنعمته على أوليائه ونقمته وغضبه على أعدائه لتستثير الرغبة والرهبة من صميم الفؤاد**. وقد ذكرنا أن ذكر قصص الأنبياء والأعداء قسمان من أقسام القرآن عظيمان وقد اشتملت الفاتحة من الأقسام العشرة على ثمانية أقسام: الذات، والصفات، والأفعال، وذكر المعاد، والصراط المستقيم بجميع طرفيه أعني التزكية والتحلية، وذكر نعمة الأولياء، وغضب الأعداء، وذكر المعاد؛ ولم يخرج منه إلا قسمان: محاجة الكفار، وأحكام الفقهاء وهما الفنان اللذان يتشعب منهما علم الكلام وعلم الفقه.

الفصل الثالث عشر في كون الفاتحة مفتاحا لأبواب الجنة الثمانية

وعند هذا ننبهك على دقيقة فنقول إن هذه السورة فاتحة الكتاب ومفتاح الجنة، وإنما كانت مفتاحا لأن أبواب الجنة ثمانية ومعاني الفاتحة ترجع إلى ثمانية. فاعلم قطعا أن كل قسم منها مفتاح باب من أبواب الجنة تشهد به الأخبار فان كنت لا تصادف من قلبك الإيمان والتصديق به وطلبت فيه المناسبة فدع عنك ما فهمته من ظاهر الجنة فلا يخفى عليك أن كل قسم يفتح باب بستان من بساتين المعرفة، ولا تظن أن روح العارف من الإنشراح في رياض المعرفة وبساتينها أقل من روح من يدخل الجنة التي يعرفها ويقضي فيها شهوة البطن والفرج وأنى يتساويان، بل لا ينكر أن يكون في العارفين من رغبته في فتح أبواب المعارف لينظر إلى ملكوت السماء والأرض وجلال خالقها ومدبرها أكثر من رغبته في المنكوح والمأكول والملبوس، وكيف لا تكون هذه الرغبة أكثر وأغلب على العارف البصير وهي مشاركة للملائكة في الفردوس الأعلى إذ لا حظ للملائكة في المطعم والمشرب والمنكح والملبس.ولعل تمتع البهائم بالمطعم والمشرب والمنكح يزيد على تمتع الإنسان فان كنت ترى مشاركة البهائم أحق بالطلب من مساهمة الملائكة في فرحهم وسرورهم بمطالعة جمال حضرة الربوبية فما أشد غيك وجهلك وغباوتك،وما أخس همتك وقيمتك على قدر همتك.

الفصل الرابع عشر في كون آية الكرسي سيدة آي القرآن وبيان إلاسم إلاعظم

فأقول هل لك أن تتفكر في آية الكرسي أنها لِم تسمى سيدة الآيات، وقد ذكرنا لك أن معرفة الله تعالى ومعرفة ذاته وصفاته هي المقصد الأقصى من علوم القرآن. وآية الكرسي تشتمل على ذكر الذات والصفات والأفعال فقط ليس فيها غيرها. فقوله{الله} إشارة إلى الذات، وقوله{لا إله إلا هو}إشارة إلى توحيد الذات، وقوله{الحي القيوم} إشارة إلى صفة الذات وجلاله، فان معنى القيوم هو الذي يقوم بنفسه ويقوم به غيره، فلا يتعلق قوامه بشيء ويتعلق به قوام كل شيء، وذلك غاية الجلال والعظمة. وقوله {لا تأخذه سنة ولا نوم} تنزيه وتقديس له عما يستحيل عليه من أوصاف الحوادث. وقوله{له ما في السموات وما في إلارض} إشارة إلى كلها وأن جميعها منه مصدرها، واليه مرجعها. وقوله{من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} إشارة إلى انفراده بالملك والحكم والأمر، وأن من يملك الشفاعة فإنما يملك بتشريفه إياه والإذن فيه، وهذا نفي للشركة عنه في الملك والأمر. وقول {يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء} إشارة إلى صفة العلم، وتفضيل بعض المعلومات، والانفراد بالعلم، حتى لا علم لغيره من ذاته، وإن كان لغيره علم فهو من عطائه وهبته وعلى قدر إرادته ومشيئته. وقوله{وسع كرسيه السموات وإلارض} إشارة إلى عظمة ملكه وكمال قدرته، وفيه سر لا يُحتمل الحال كشفه، فان معرفة الكرسي ومعرفة صفاته واتساع السموات والأرض معرفة شريفة غامضة ويرتبط بها علوم كثيرة. وقوله{ولا يؤوده حفظهما} إشارة إلى صفات القدرة وكمالها وتنزيهها عن الضعف والنقصان. وقوله{وهو العلي العظيم} إشارة إلى أصلين عظيمين في الصفات.

والآن اذا تأملت جملة هذه المعاني ثم تلوت جميع آيات القرآن لم تجد جملة هذه المعاني من التوحيد والتقديس وشرح الصفات العلى مجموعة في آية واحدة منها، فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم "سيدة آي القرآن" فإن{شهد الله} ليس فيه إلا التوحيد، و{قل هو الله أحد} ليس فيه إلا التوحيد والتقديس، و{قل اللهم مالك الملك} ليس فيه إلا الأفعال وكمال القدرة، والفاتحة فيها رموز إلى هذه الصفات من غير شرح، وهي مشروحة في آية الكرسي، والذي يقرب

منها في جميع المعاني آخر الحشر وأول الحديد اذ اشتملا على أسماء وصفات كثيرة، ولكنها آيات لا آية واحدة، وهذه آية الكرسي آية واحدة اذا قابلتها بإحدى تلك الآيات وجدتها أجمع المقاصد، فلذلك تستحق السيادة على الآي.

الفصل الخامس عشر في علة كون سورة إلاخلاص تعدل ثلث القرآن

وأما قوله عليه السلام "قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن"، فما أراك أن تفهم وجه ذلك، فتارة تقول هذا ذكره للترغيب في التلاوة وليس المعني به التقدير وحاشا منصب النبوة عن ذلك، وتارة تقول هذا بعيد عن الفهم والتأويل وأن آيات القرآن تزيد على ستة إلاف آية فهذا القدر كيف يكون ثلثها، وهذا لقلة معرفتك بحقائق القرآن ونظرك إلى ظاهر ألفاظه فتظن أنها تكثر وتعظم بطول الألفاظ وتقصر بقصرها. فاعلم أن سورة إلاخلاص تعدل ثلث القرآن قطعا وارجع إلى الأقسام الثلاثة التي ذكرناها في مهمات القرآن ،اذ هي معرفة الله تعالى ومعرفة الآخرة ومعرفة الصراط المستقيم، فهذه المعارف الثلاثة هي المهمة والباقي توابع؛ وسورة الإخلاص تشتمل على واحد من الثلاث وهو معرفة الله وتوحيده وتقديسه عن مشارك في الجنس والنوع، وهو المراد بنفي الأصل والفرع والكفؤ، ووصفه بالصمد يشعر بأنه الصمد الذي لا مقصد في الوجود للحوائج سواه؛ نعم ليس فيها حديث الآخرة والصراط المستقيم، وقد ذكرنا أن أصول مهمات القرآن معرفة الله تعالى ومعرفة الآخرة ومعرفة الصراط المستقيم، فلذلك تعدل ثلث القرآن، أي ثلث الأصول من القرآن، كما قال عليه السلام "الحج عرفة"، أي هو الأصل والباقي توابع.

الفصل السابع عشر في تخصيص النبي آية الكرسي بأنها سيدة آي القرآن والفاتحة بأنها الأفضل

لعلك تقول لم خصصت آية الكرسي بأنها السيدة والفاتحة بأنها الأفضل، أفيه سر أم هو بحكم الإتفاق كما يسبق اللسان في الثناء على شخص إلى لفظ وفي الثناء على مثله إلى لفظ آخر؟

فأقول هيهات فان ذلك يليق بي وبك وبمن ينطق عن الهوى لا بمن ينطق عن وحي يوحى. فلا تظنن أن كلمة واحدة تصدر عنه في أحواله المختلفة من الغضب والرضا إلا بالحق والصدق. والسر في هذا التخصيص أن الجامع بين فنون الفضل وأنواعها الكثيرة يسمى فاضلا، فالذي يجمع أنواعا أكثر يسمى أفضل، فان الفضل هو الزيادة، فالأفضل هو الأزيد، وأما السؤدد فهو عبارة عن رسوخ معنى الشرف الذي يقتضي الاستتباع ويأبى التبعية، واذا راجعت المعاني التي ذكرناها في السورتين علمت أن الفاتحة تتضمن التنبيه على معان كثيرة ومعان مختلفة فكانت أفضل، وآية الكرسي تشتمل على المعرفة العظمى التي هي المتبوعة والمقصودة التي يتبعها سائر المعارف فكان اسم السيدة لها أليق؛ فتنبه لهذا النمط من التصرف في قوارع القرآن وما يتلوه عليك ليغزر علمك وينفتح فكرك فترى العجائب والآيات وتنشرح في جنة المعارف وهي الجنة التي لا نهاية لأطرافها، اذ معرفة جلال الله وأفعاله لا نهاية لها.

الملحق الثالث

تفسير فاتحة الكتاب

يقول الإمام الحافظ ابن كثير في كتابه "تفسير القرآن العظيم":

يقال لها: الفاتحة، أي فاتحة الكتاب خطا، وبها تفتح القراءة في الصلاة، ويقال لها أيضا: أم الكتاب عند الجمهور، وكره أنس والحسن وابن سيرين كرها تسميتها بذلك، قال الحسن وابن سيرين: إنما ذلك اللوح المحفوظ، وقال الحسن: الآيات المحكمات هن أم الكتاب، ولذا كرها- أيضا- أن يقال لها أم القرآن، وقد ثبت في الحديث الصحيح عند الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم". ويقال لها: الحمد، ويقال لها: الصلاة، لقوله عليه السلام عن ربه: "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي"، الحديث. فسميت الفاتحة: صلاة، لأنها شرط فيها. ويقال لها: الشفاء، لما رواه الدارمي عن أبي سعيد مرفوعا: "فاتحة الكتاب شفاء من كل سم " ويقال لها: الرقية، لحديث أبي سعيد في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وما يدريك أنها رقية ؟". وروى الشعبي عن ابن عباس أنه سماها: أساس القرآن، قال: فأساسها بسم الله الرحمن الرحيم، وسماها سفيان بن عيينة: الواقية. وسماها يحيى بن أبي كثير: الكافية، لأنها تكفي عما عداها ولا يكفي ما سواها عنها، كما جاء في بعض الإحاديث المرسلة: "أم القرآن عوض من غيرها، وليس غيرها عوضا عنها". ويقال لها: سورة الصلاة والكنز ذكرهما الزمخشري في كشافه. وهي مكية، قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية، وقيل مدنية، قاله أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري. ويقال: نزلت مرتين، مرة بمكة، ومرة بالمدينة[١٧]، والأول أشبه لقوله تعالى:{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي}[الحجر:٨٧]، والله أعلم. وحكى أبو الليث السمرقندي أن نصفها نزل بمكة ونصفها إلاخر نزل بالمدينة، **وهو غريب جدًا**، نقله القرطبي عنه. وهي سبع آيات بلا خلاف. وإنما اختلفوا في البسملة: هل هي آية مستقلة من أولها، كما هو عند جمهور قراء الكوفة وقول الجماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلف، أو بعض آية أو لا تعد من أولها بالكلية، كما هو قول أهل المدينة من القراء والفقهاء؟ على ثلاثة أقوال، سيأتي تقريره في موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة. قالوا: وكلماتها خمس وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفًا. قال البخاري في أول كتاب التفسير: وسميت أم الكتب، أنه يُبدأ بكتابتها في المصاحف، ويُبدأ بقراءتها في الصلاة. وقيل: إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته. قال ابن جرير: والعرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لأمر- إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع - أُمًّا، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ أمّ الرأس، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أُمًّا. قال: وسميت مكة أم القرى لتقدمها أمام جميعها وجمعها ما سواها، وقيل: لأن الأرض دحيت منها. ويقال لها أيضًا الفاتحة؛ لأنها تُفتتح بها القراءة، وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام، وصح تسميتها بالسبع المثاني، قالوا: لأنها تثنى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة، وإن كان للمثاني معنى آخر غير هذا، كما سيأتي

[١٧] كعادة علماء الحديث في التوفيق بين الإحاديث والمرويات المتعارضة بناء على صحة سندها (المصنف)

بيانه في موضعه إن شاء الله. قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا ابن أبي ذئب وهاشم بن هاشم عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأم القرآن: "هي أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم". وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "هي أم القرآن، وهي فاتحة الكتاب، وهي السبع المثاني".وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه في تفسيره: حدثنا أحمد بن محمد بن زياد، ثنا محمد بن غالب بن حارث، ثنا إسحاق بن عبد الواحد الموصلي، ثنا المعافى بن عمران، عن عبد الحميد بن جعفر، عن نوح بن أبي بلال، عن المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الحمد لله رب العالمين سبع آيات: بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم، وهي أم الكتاب ".

وقد قيل: إن الفاتحة أول شيء نزل من القرآن، كما ورد في حديث رواه البيهقي في دلائل النبوة ونقله الباقلاني أحد أقوال ثلاثة هذا أحدها، وقيل:{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} كما في حديث جابر في الصحيح، وقيل:{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}[العلق:١]، وهذا هو الصحيح، كما سيأتي تقريره في موضعه، والله المستعان.

ذكر ما ورد في فضل الفاتحة

قال الإمام أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله في مسنده: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، حدثني خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المعَلَّى رضي الله عنه، قال: كنت أصلي فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم أجبه حتى صلَّيت وأتيته، فقال: "ما منعك أن تأتيني؟". قال: قلت يا رسول الله، إني كنت أصلي. قال: "ألم يقل الله:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}[الانفال:٢٤]، ثم قال:"لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد. قال: فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت:يا رسول الله إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن. قال: نعم، الحمد لله رب العالمين، هي: السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته".

الإستعاذة

وقد جاء في الإستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها هاهنا، وموطنها كتاب الأذكار وفضائل الأعمال، والله أعلم. وقد رُوِيَ أن جبريل عليه السلام، أوّل ما نزل بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بالاستعاذة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: أول ما نزل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم قال: يا محمد، استعذ. قال: "أستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم" ثم قال: قل: بسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال:{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} قال عبد الله: وهي أول سورة أنزلها الله على محمد صلى الله عليه وسلم، بلسان جبريل.**وهذا الأثر غريب، وإنما ذكرناه ليُعرف فإن في إسناده ضعفًا وانقطاعًا**، والله أعلم.

مسألة: وجمهور العلماء على أن الإستعاذة مستحبة ليست بمتحتمة يأثم تاركها، وحكى فخر الدين عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة، قال: وقال ابن سيرين: إذا تعوذ مرة واحدة في عمره فقد كُفي في إسقاط الوجوب، واحتج فخر الدين لعطاء بظاهر الآية:{فَاسْتَعِذْ} وهو أمر ظاهره الوجوب وبمواظبة النبي صلى الله عليه وسلم

عليها، ولأنها تدرأ شر الشيطان وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولأن الإستعاذة أحوط وهو أحد مسالك الوجوب. وقال بعضهم: كانت واجبة على النبي صلى الله عليه وسلم دون أمته، وحُكي عن مالك أنه لا يتعوذ في المكتوبة ويتعوذ لقيام شهر رمضان في أول ليلة منه.

مسألة: وقال الشافعي في الإملاء، يُجهر بالتعوذ، وإن أسر فلا يضر، وقال في الأم بالتخيير لأنه أسر ابن عمر وجهر أبو هريرة. واختلف قول الشافعي فيما عدا الركعة الأولى: هل يستحب التعوذ فيها، على قولين، ورجح عدم الاستحباب، والله أعلم. فإذا قال المستعيذ: **أعوذ بالله من الشيطان الرجيم** كفى ذلك عند الشافعي وأبي حنيفة، وزاد بعضهم: أعوذ بالله السميع العليم، وقال آخرون: بل يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم، قاله الثوري والإوزاعي وحكي عن بعضهم أنه يقول: أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، لمطابقة أمر الآية ولحديث الضحاك عن ابن عباس المذكور، والأحاديث الصحيحة، كما تقدم، أولى بالاتباع من هذا، والله أعلم.

مسألة: ثم الإستعاذة في الصلاة إنما هي للتلاوة، وهو قول أبي حنيفة ومحمد، وقال أبو يوسف: بل للصلاة، فعلى هذا يتعوذ المأموم وإن كان لا يقرأ، ويُتعوذ في العيد بعد الإحرام وقبل تكبيرات العيد، والجمهور بعدها قبل القراءة. ومن لطائف الإستعاذة أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطييب له وتهيؤ لتلاوة كلام الله، وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصانعة، ولا يداري بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان كما دلت على ذلك آيات القرآن في ثلاث من المثاني، وقال تعالى:{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا}[الاسراء:٦٥] ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان.

فصل: والإستعاذة هي الإلتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر، والعياذة تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير، كما قال المتنبي :

يا من ألوذ به فيما أؤمله... ومن أعوذ به ممن أحاذره

لا يجبر الناس عظما أنت كاسره... ولا يهيضون عظما أنت جابره

فصل: معنى الإستعاذة

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أُمرت به، أو يحثني على فعل ما نُهيت عنه، فإن الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان إلا الله؛ ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه، ليرده طبعه عمَّا هو فيه من الأذى، وأمر بالإستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل، لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة، قوله في الإعراف:{خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}[الإعراف:١٩٩]، فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال:{وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[الإعراف: ٢٠٠]، وقال تعالى في سورة "قد أفلح المؤمنون":{ادفع بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ}[المؤمنون: ٩٦ – ٩٨]، وقال تعالى في سورة "حم السجدة":{وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا

وَمَا يُلَقَّاهَا إلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[فصلت: ٣٤ - ٣٦].

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}.

افتتح بها الصحابةُ كتاب الله، واتّفق العلماء على أنها بعض آية من سورَة النمل، ثمّ اختلفوا: هل هي آية مستقلة في أوّل كل سورة، أو من أول كل سورة كتبت في أوّلها، أو أنها بعض آية من أوّل كل سورة، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها، أو أنها إنما كتبت للفصل، لا أنها آية؟ على أقوال للعلماء سلفًا وخلفًا، وذلك مبسوط في غير هذا الموضع. وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، وأخرجه الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في مستدركه أيضًا. وممن حكي عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وعليّ. ومن التابعين: عطاء، وطاوس، وسعيد بن جبير، ومكحول، والزهري، وبه يقول عبد الله بن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، في رواية عنه، وإسحاق بن رَاهوَيه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، رحمهم الله. وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما: ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وقال الشافعي في قول، في بعض طرق مذهبه، هي آية من الفاتحة وليست من غيرها، وعنه أنها بعض آية من أول كل سورة، وهما غريبان. وقال داود: هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها، وهذه رواية عن الإمام أحمد بن حنبل. وحكاه أبو بكر الرازي، عن أبي الحسن الكرخي، وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله. هذا ما يتعلق بكونها من الفاتحة أم لا. فأمَّا ما يتعلق بالجهر بها، فمفرّع على هذا. فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية من أوّلها. وأمَّا من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا؛ فذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفًا وخلفًا، فجهر بها من الصحابة أبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، ومعاوية، وحكاه ابن عبد البر والبيهقي عن عمر وعليّ، ونقله الخطيب عن الخلفاء الإربعة، وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ، وهو غريب. وقد رواه الحاكم في مستدركه، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: صحيح. وفي صحيح البخاري، عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كانت قراءته مدا، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم. وذهب آخرون إلى أنه لا يُجهر بالبسملة في الصلاة ، وهذا هو الثابت عن الخلفاء الإربعة، وطوائف من سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبي حنيفة، والثوري، وأحمد بن حنبل. وعند الإمام مالك: أنه لا يقرأ البسملة بالكلية، لا جهرًا ولا سرًا. فهذه مآخذ الإمة، رحمهم الله، في هذه المسألة وهي قريبة، **لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر**، ولله الحمد والمنة.

فصل

في فضلها

وقد روى الحافظ ابن مَرْدُويه من طريقين، عن إسماعيل بن عياش، عن إسماعيل بن يحيى، عن مِسْعَر، عن عطية، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتَّاب ليعلمه، فقال المعلم: اكتب، قال ما أكتب؟ قال: بسم الله، قال له عيسى: وما باسم الله؟ قال المعلم: ما أدري. قال له عيسى: الباء بَهاءُ الله، والسين

سناؤه، والميم مملكته، **والله إله الإلاهة**، والرحمن رحمن الدنيا وإلاخرة، والرحيم رحيم إلاخرة".وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم بن العلاء الملقب زِبْرِيق، عن إسماعيل بن عياش، عن إسماعيل بن يحيى، عن ابن أبي مُلَيْكة، عمن حدثه، عن ابن مسعود، ومسعر، عن عطية، عن أبي سعيد، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، فذكره. **وهذا غريب جدًا**، وقد يكون صحيحًا إلى من دون رسول الله صلى الله عليه وسلم، **ويكون من إلاسرائيليات لا من المرفوعات**، والله أعلم.

وقد روى ابن مَرْدُويه، من حديث يزيد بن خالد، عن سليمان بن بريدة، وفي رواية عن عبد الكريم أبي أمية، عن ابن بريدة، عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أُنزلت عليّ آية لم تنزل على نبي غير سليمان بن داود وغيري، وهي بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ". فتستحب في أوّل الخطبة لما جاء: "كل أمر لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم، فهو أجذم". وقد ذكر الرازي في تفسيره في فضل البسملة أحاديث منها: عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أتيت أهلك فسم الله؛ فإنه إن ولد لك ولد كتب لك بعدد أنفاسه وأنفاس ذريته حسنات"، **وهذا لا أصل له، ولا رأيته في شيء من الكتب المعتمد عليها ولا غيرها**.

{**الله**} عَلَمٌ على الرب تبارك وتعالى، يقال: إنه الأسم الأعظم؛ لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى:{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الإسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[الحشر: ٢٢ – ٢٤]، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له، كما قال تعالى:{وللهِ الأسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}، وقال تعالى:{قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الإسْمَاءُ الْحُسْنَى}[الإسراء: ١١٠]. وهو اسم لم يُسَم به غيره تبارك وتعالى.

{**الرحمن الرحيم**} اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم، وفي كلام ابن جرير ما يُفْهِم حكاية الإتفاق على هذا، وفي تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك، كما تقدم في الأثر، عن عيسى عليه السلام، أنه قال: والرحمن رحمن الدنيا وإلاخرة، والرحيم رحيم إلاخرة. وقد زعم بعضهم أنه غير مشتق إذ لو كان كذلك لاتصل بذكر المرحوم وقد قال:{وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}[إلاحزاب:٤٣]، وحكى ابن الأنباري في الزاهر عن المبرد: أن الرحمن اسم عبراني ليس بعربي، وقال أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن: وقال أحمد بن يحيى: الرحيم عربي، والرحمن عبراني، فلهذا جمع بينهما. قال أبو إسحاق: **وهذا القول مرغوب عنه**. وقال القرطبي: والدليل على أنه مشتق ما خرَّجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله تعالى: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسمًا من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته". قال: وهذا نص في الإشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق. قال: وإنكار العرب لإسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له، قال القرطبي: هما بمعنى واحد كندمان ونديم؛ قاله أبو عبيد، وقيل: ليس بناء فعلان كفعيل، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك: رجل غضبان، وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول، قال أبو علي الفارسي: الرحمن: اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين، قال الله تعالى:{وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}[إلاحزاب:٤٣]، وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، أي أكثر رحمة، ثم حكي عن الخطابي وغيره: أنهم استشكلوا هذه الصفة، وقالوا: لعله أرفق كما جاء في الحديث: "إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله وإنه يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف". وقال ابن المبارك: الرحمن

إذا سئل أعطى، والرحيم إذا لم يُسأل يغضب، وهذا كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي صالح الفارسي الخوزي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"من لم يسأل الله يغضب عليه"، وقال بعض الشعراء :

لا تطلبن بني آدم حاجة... وسل الذي أبوابه لا تغلق

الله يغضب إن تركت سؤاله... وبني آدم حين يسأل يغضب

قال ابن جرير: حدثنا السري بن يحي التميمي، حدثنا عثمان بن زُفَر، سمعت العَرْزَميّ يقول: الرحمن الرحيم، قال: الرحمن لجميع الخلق، الرحيم، قال: بالمؤمنين. قالوا: ولهذا قال:{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ}[الفرقان: ٥٩]، وقال:{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[طه:٥] فذكر الإستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته، وقال:{وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}[الأحزاب: ٤٣] فخصهم باسمه الرحيم، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه، والرحيم خاصة بالمؤمنين، لكن جاء في الدعاء المأثور: رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يُسم به غيره، كما قال تعالى:{قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} وقال تعالى:{وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}. ولما تجهرم مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشهر به، فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب، فصار يُضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر، وأهل الوبر من أهل البادية وإلاعراب.

وقد زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن لأنه أكد به، والتأكيد لا يكون إلا أقوى من المؤكَّد، والجواب أن هذا ليس من باب التوكيد، وإنما هو من باب النعت [بعد النعت] ولا يلزم فيه ما ذكروه. وعلى هذا فيكون تقدير اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره، ووصفه أولا بالرحمن الذي مُنع من التسمية به لغيره، كما قال تعالى:{قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[الإسراء: ١١٠]. وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره حيث قال:{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[التوبة: ١٢٨]، كما وصف غيره بذلك من أسمائه في قوله:{إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}[الإنسان:٢]. والحاصل: أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره، كإسم الله والرحمن والخالق والرزاق ونحو ذلك. فلهذا بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن، لأنه أخص وأعرف من الرحيم، لأن التسمية أولا إنما تكون بأشرف الاسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص. فإن قيل: فإذا كان الرحمن أشد مبالغة، فهلا اكتفى به عن الرحيم؟ فقد روي عن عطاء الخراساني ما معناه: أنه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن، جيء بلفظ الرحيم ليقطع التوهم بذلك، فإنه لا يوصف بالرحمن الرحيم إلا الله تعالى. والله أعلم.

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن، حتى رد الله عليهم ذلك بقوله:{قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[الاسراء:١١٠]. ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعَلي: "اكتب {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}"، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. رواه البخاري، وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. وقال تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا}[الفرقان: ٦٠]. والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جُحود وعناد وتعنت في كفرهم؛ فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى

بالرحمن، قال ابن جرير: وقد أنشد لبعض الجاهلية الجُهَّال: إلا ضَرَبَتْ تلك الفتاةُ هَجِينَها... إلا قَضَبَ الرحمنُ رَبِّي يمينها.

وقال سلامة بن جندب الطهوي :

عَجِلتم علينا عَجْلَتينَا عليكُمُ... وما يَشَأ الرّحْمَن يَعْقِد ويُطْلِقِ

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: الرحمن: الفعلان من الرحمة، وهو من كلام العرب، وقال:{الرحمن الرحيم}[الفاتحة: ٣] الرقيق الرفيق بمن أحب أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه، وكذلك أسماؤه كلها. وقال ابن جرير أيضًا : حدثنا محمد بن بشار، حدثنا حماد بن مَسْعَدة، عن عوف، عن الحسن، قال: الرحمن اسم ممنوع. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد [بن] يحيى بن سعيد القطان، حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو إلاشهب، عن الحسن، قال: الرحمن: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه، تسمى به تبارك وتعالى.

قال أبو جعفر بن جرير: معنى {**الحمد لله**} الشكر لله خالصًا دون سائر ما يُعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذَّاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخرًا. وقال ابن جرير:{**الحمد لله**} ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه فكأنه قال: قولوا :{الحمد لله}. قال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السَّكوني، حدثنا بقية بن الوليد، حدثني عيسى بن إبراهيم، عن موسى بن أبي حبيب، عن الحكم بن عمير، وكانت له صحبة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "**إذا قلت: الحمد لله رب العالمين، فقد شكرت الله، فزادك**". وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: **الحمد لله إلا كان الذي أُعطي أفضل مما أخذ**". وقال القرطبي في تفسيره، وفي نوادر إلاصول عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**لو أن الدنيا بحذافيرها في يد رجل من أمتي ثم قال: الحمد لله، لكان الحمد لله أفضل من ذلك**". قال القرطبي وغيره: أي لكان إلهامه الحمد لله أكبر نعمة عليه من نعم الدنيا، لأن ثواب الحمد لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى، قال الله تعالى:{المال وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا}[الكهف: ٤٦]. وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم :"أن عبدًا من عباد الله قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء فقالا يا رب، إن عبدا قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها، قال الله- وهو أعلم بما قال عبده- :ماذا قال عبدي؟ قالا يا رب إنه قد قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. فقال الله لهما: اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها".

[ولا يُستعمل الرب لغير الله، بل بإلاضافة تقول: رب الدار، رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل، وقد قيل: إنه الإسم الأعظم] (٤).والعالمين: جمع عالم، [وهو كل موجود سوى الله عز وجل] ، والعالم جمع لا واحد له من لفظه، والعوالم أصناف المخلوقات [في السماوات وإلارض] في البر والبحر ، وكل قرن منها وجيل يسمى عالما أيضًا. واستدل القرطبي لهذا القول بقوله:{لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}[الفرقان:١] وهم الجن وإلانس. وقال الفراء وأبو عبيدة: العالم

عبارة عما يعقل وهم إلانس والجن والملائكة والشياطين، ولا يقال للبهائم: عالم. وقال قتادة: رب العالمين، كل صنف عالم. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى{رب العالمين}، قال: الإنس عالم، والجن عالم، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم، أو أربعة عشر ألف عالم، (هو يشك)، من الملائكة على إلارض، وللأرض أربع زوايا، في كل زاوية ثلاثة إلاف عالم، وخمسمائة عالم، خلقهم [الله] لعبادته. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. [**وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح**]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الفرات، يعني ابن الوليد، عن معتب بن سمي، عن تُبَيع، يعني الحميري، في قوله:{رب العالمين}، قال: العالمين ألف أمة؛ فستمائة في البحر، وأربعمائة في البر. [وحكي مثله عن سعيد بن المسيب]. وقال الزجاج: العالم كل ما خلق الله في الدنيا وإلاخرة. قال القرطبي: وهذا هو الصحيح أنه شامل لكل العالمين؛ كقوله:{قال فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَإلارْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ}.

{**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**} وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم إلاخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئا، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال:{يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا}[النبأ: ٣٨]، وقال تعالى:{وَخَشَعَتِ إلاصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إلا هَمْسًا} [طه:١٠٨]، وقال:{يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ}[هود:١٠٥]. وقال الضحاك عن ابن عباس: {**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**}، يقول: لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكما، كملكهم في الدنيا. قال: ويوم الدين يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، إلا من عفا عنه. وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف، وهو ظاهر. وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه ذهب إلى تفسير{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} أنه القادر على إقامته، ثم شرع يضعفه. والظاهر أنه لا منافاة بين هذا القول وما تقدم، وأن كلا من القائلين بهذا وبما قبله يعترف بصحة القول الآخر ولا ينكره، ولكن السياق أدل على المعنى الأول من هذا، كما قال:{الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ}[الفرقان: ٢٦]. والقول الثاني يشبه قوله:{وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ}، [إلانعام:٧٣] والله أعلم. والملك في الحقيقة هو الله عز وجل؛ قال الله تعالى:{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ}. وفي القرآن العظيم:{لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}. فأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا}،{وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ}{إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا}. وفي الصحيحين:(مثل الملوك على الأسرة). والدين الجزاء والحساب؛ كما قال تعالى:{يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ}، وقال:{أئنا لمدينون} أي مجزيون محاسبون، وفي الحديث: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت"، أي حاسب نفسه لنفسه؛ كما قال عمر رضي الله عنه:"حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم:{يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ } ".

{**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**} العبادة في اللغة من الذلة، يقال: طريق مُعَبّد، وبعير مُعَبّد، أي: مذلل، وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف. وقدم المفعول وهو{إياك}، وكرر للاهتمام والحصر، أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة. والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[الفاتحة: ٥] فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة،

والتفويض إلى الله عز وجل. وهذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى:{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}[هود: ١٢٣] {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا}[الملك: ٢٩]{رَبَّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا}[المزمل: ٩]، وكذلك هذه الآية الكريمة:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}. وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب، وهو مناسبة، لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى؛ فلهذا قال:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى، وإرشاد لعباده بأن يثنوا عليه بذلك؛ ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك. وقال قتادة:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أمركم. وإنما قدم:{إياك نعبد} على{وإياك نستعين} لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم هو أن يقدم ما هو الأهم فالأهم، والله أعلم.

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} والهداية هاهنا: الإرشاد والتوفيق، وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} فتضمن معنى ألهمنا، أو وفقنا، أو ارزقنا، أو اعطنا؛{وهديناه النجدين}[البلد: ١٠] أي: **بينا له الخير والشر**، وقد تعدى بإلى، كقوله تعالى:{اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[النحل:١٢١] {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ}[الصافات: ٢٣] وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة، وكذلك قوله تعالى:{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[الشورى:٥٢]، وقد تعدى باللام، كقول أهل الجنة:{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا}[الإعراف: ٤٣] أي وفقنا لهذا وجعلنا له أهلا. وأما الصراط المستقيم، فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: **أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن "الصراط المستقيم" هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه**. وكذلك ذلك في لغة جميع العرب. قال: والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر، قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل، وصف باستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته، والمعوج باعوجاجه. ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول، فروي أنه كتاب الله، قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثني يحيى بن يمان، عن حمزة الزيات، عن سعد، وهو أبو المختار الطائي، عن ابن أخي الحارث إلاعور، عن الحارث إلاعور، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**الصراط المستقيم كتاب الله**". وقال الثوري، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله، قال: الصراط المستقيم كتاب الله، وقيل: هو الإسلام. وقال الضحاك، عن ابن عباس، قال: قال جبريل لمحمد، عليهما السلام: قل يا محمد اهدنا الصراط المستقيم. يقول: اهدنا الطريق الهادي، وهو دين الله الذي لا عوج فيه. وقال ميمون بن مِهْرَان، عن ابن عباس، في قوله:{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} قال: ذاك الإسلام. وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم:{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} قالوا: هو الإسلام. وقال عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر:{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} قال: الإسلام، قال: هو أوسع مما بين السماء والإرض. وقال ابن الحنفية في قوله تعالى:{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} قال هو دين الله الذي لا يُقبل من العباد غيره. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: اهدنا الصراط المستقيم، قال: هو الإسلام. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن الفضل السقطي، حدثنا إبراهيم بن مهدي المِصِّيصي، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن الاعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله، قال: الصراط المستقيم الذي تركنا عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: والذي هو أولى بتأويل هذه

الآية عندي- أعني: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}- أن يكون معنيًا به: **وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له مَنْ أنعمت عليه مِنْ عبادك، من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم**؛ لأن مَن وفق لما وُفق له من أنعم الله عليهم مِن النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقد وُفق للإسلام، وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والإنزجار عما زجره عنه، واتباع منهاج النبي صلى الله عليه وسلم، ومنهاج الخلفاء الإربعة، وكل عبد صالح ، وكل ذلك من الصراط المستقيم. فإن قيل: كيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها، وهو متصف بذلك؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟ فالجواب: أن لا، ولولا احتياجه ليلا ونهارًا إلى سؤال الهداية لما أرشده الله إلى ذلك، فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية، ورسوخه فيها، وتبصره، وازدياده منها، واستمراره عليها، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله، فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمده بالمعونة والثبات والتوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله؛ فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نزلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزلَ مِنْ قَبْلُ}، إلاية [النساء: ١٣٦]، **فقد أمر الذين آمنوا بالايمان، وليس في ذلك تحصيل الحاصل، لأن المراد الثبات والإستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك** ، والله أعلم.

وقال تعالى آمرا لعباده المؤمنين أن يقولوا: {رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}. وقد كان الصدّيق رضي الله عنه يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سرًا. فمعنى قوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} **استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره**.

{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} و{الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} هم المذكورون في سورة النساء، حيث قال: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا}[النساء: ٦٩ ، ٧٠]. وقال الضحاك، عن ابن عباس: صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك، من ملائكتك، وأنبيائك، والصديقين، والشهداء والصالحين؛ وذلك نظير ما قال ربنا تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}، إلاية [النساء : ٦٩]. وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}، قال: هم النبيون. وقال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس: هم المؤمنون. وكذا قال مجاهد. وقال وَكِيع: هم المسلمون. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه. والتفسير المتقدم، عن ابن عباس أعم، وأشمل، والله أعلم.

وقوله تعالى: {**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ**} [قرأ الجمهور: "غير" بالجر على النعت، قال الزمخشري: وقرئ بالنصب على الحال، وهي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب، ورويت عن ابن كثير]، وذو الحال الضمير في{عليهم } والعامل: {أنعمت} والمعنى اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسله، وامتثال أوامره وترك نواهيه وزواجره، **غير صراط المغضوب عليهم، [وهم] الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق**، وأكد الكلام بلا ليدل على أن ثَمّ مسلكين فاسدين، وهما طريقتا اليهود والنصارى.

{**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**}أي: غير صراط المغضوب عليهم. اكتفى بالمضاف إليه عن ذكر المضاف، وقد دل عليه سياق الكلام، وهو قوله تعالى:{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}، ثم قال تعالى:{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} ومنهم من زعم أن(لا) في قوله:{ولا الضالين} زائدة، وأن تقدير الكلام عنده: غير المغضوب عليهم والضالين. والصحيح ما قدمناه. ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه كان يقرأ : " غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ الضَّالّين". وهذا إسناد صحيح ، وهو محمول على أنه صدر منه على وجه التفسير ، فيدل على ما قلناه من أنه إنما جيء بها لتأكيد النفي، [لئلا يتوهم أنه معطوف على {الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}، وللفرق بين الطريقتين، لتجتنب كل منهما. فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم؛ ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى، لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم. والنصارى لما كانوا قاصدين شيئًا لكنهم لا يهتدون إلى طريقه، لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الرسول الحق، ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب ،كما قال فيهم:{مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ}[المائدة: ٦٠] وأخص أوصاف النصارى الضلال، كما قال:{قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ}[المائدة: ٧٧] ، وبهذا جاءت الأحاديث والآثار. (من المؤكد أن هذه إضافة من محقق نسخة الكتاب ولذا وضعها بين قوسين معقوفين، والله أعلم)].

اشتملت هذه السورة الكريمة، وهي سبع آيات، على حمد الله وتمجيده والثناء عليه، بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبيده إلى سؤاله والتضرع إليه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بإلالوهية تبارك وتعالى، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يُفضي بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم القيامة، المفضي بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين. واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة، ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل، لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون. وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى:{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}، وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى:{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ}، وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة، كما قال تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}، الآية [المجادلة: ١٤]، وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به، **وإن كان هو الذي أضلهم بقدَره**، كما قال تعالى:{مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا }[الكهف: ١٧]، وقال:{مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}[الاعراف:١٨٦]، **إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية وإلاضلال**، لا كما تقوله الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه ، ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن، ويتركون ما يكون فيه صريحا في الرد عليهم، وهذا حال أهل الضلال والغي، وقد ورد في الحديث الصحيح: "إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم". يعني في قوله تعالى:{فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ}[آل عمران: ٧] ، فليس– بحمد الله –

لمبتدع في القرآن حجة صحيحة، لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقًا بين الهدى والضلال، وليس فيه تناقض ولا اختلاف، لأنه من عند الله ، تنزيل من حكيم حميد.

فصل: يستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين [مثل : يس]، ويقال: أمين. بالقصر أيضًا [مثل : يمين]، ومعناه: اللهم استجب ، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد وأبو داود ، والترمذي ، عن وائل بن حجر ، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ:{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} فقال:"آمين" ، مد بها صوته، ولأبي داود: رفع بها صوته، وقال الترمذي : هذا حديث حسن. وروي عن علي ، وابن مسعود وغيرهم. وعن أبي هريرة ، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} قال: "آمين" حتى يُسمع من يليه من الصف الأول، رواه أبو داود، وابن ماجه، وزاد: يرتج بها المسجد، والدارقطني وقال: هذا إسناد حسن.

وعن بلال أنه قال:يا رسول الله، لا تسبقني بآمين. رواه أبو داود. ونقل أبو نصر القشيري عن الحسن وجعفر الصادق أنهما شددا الميم من آمين مثل:{آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ}[المائدة : ٢].قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة، ويتأكد في حق المصلي، وسواء كان منفردًا أو إمامًا أو مأمومًا، وفي جميع الأحوال، لما جاء في الصحيحين، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غُفر له ما تقدم من ذنبه"؛ ولمسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قال أحدكم في الصلاة: آمين، والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما إلاخرى، غُفر له ما تقدم من ذنبه".[قيل : بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان، وقيل في الإجابة، وقيل في صفة الإخلاص]. وفي صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعا: "إذا قال، يعني الإمام:{ولا الضالين}، فقولوا: آمين. يجبكم الله". وقال جُوَيبر، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: قلت: يا رسول الله، ما معنى آمين؟ قال: "رب افعل".وقال الجوهري: معنى آمين: كذلك فليكن، وقال الترمذي: معناه: لا تخيب رجاءنا، **وقال الأكثرون: معناه: اللهم استجب لنا**، وحكى القرطبي عن مجاهد وجعفر الصادق وهلال بن كيسان: أن آمين اسم من أسماء الله تعإلى **وروي عن ابن عباس مرفوعًا ولا يصح**، قاله أبو بكر بن العربي المالكي. وقال أصحاب مالك: لا يؤمن الإمام ويؤمن المأموم، لما رواه مالك عن سُمَيّ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "وإذا قال، يعني الإمام:{ولا الضالين}، فقولوا:آمين". الحديث. واستأنسوا– أيضا– بحديث أبي موسى:"وإذا قرأ:{ولا الضالين}، فقولوا: "آمين".

وقد قدمنا في المتفق عليه:"إذا أمن الإمام فأمنوا" وأنه عليه الصلاة والسلام كان يؤمن إذا قرأ{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ}. وقد اختلف أصحابنا في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهرية، وحاصل الخلاف أن الإمام إن نسي التأمين جهر المأموم به قولا واحدًا، وإن أمَّن الإمام جهرًا فالجديد أنه لا يجهر المأموم وهو مذهب أبي حنيفة، ورواية عن مالك؛ لأنه ذِكر من الأذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة. والقديم أنه يُجهر به، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل، والرواية الأخرى عن مالك ، لما تقدم:"حتى يرتج المسجد". ولنا قول آخر ثالث: أنه إن كان المسجد صغيرًا لم يجهر المأموم، لأنهم يسمعون قراءة الإمام، وإن كان كبيرا جهر ليبلغ التأمين مَنْ في أرجاء المسجد، والله أعلم. وقد روى الإمام أحمد في مسنده، عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت عنده اليهود، فقال:"إنهم لن يحسدونا على

شيء كما يحسدونا على الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين".

وروى ابن مَرْدُويه، عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أعطيت آمين في الصلاة وعند الدعاء، لم يعط أحد قبلي إلا أن يكون موسى، كان موسى يدعو، وهارون يؤمن، فاختموا الدعاء بآمين، فإن الله يستجيبه لكم".

قلت: ومن هنا نزع بعضهم في الدلالة بهذه إلاية الكريمة، وهي قوله تعإلى:{وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَإلا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ} [يونس: ٨٨ ، ٨٩]، فذكر الدعاء عن موسى وحده، ومن سياق الكلام ما يدل على أن هارون أمَّن، فنزل منزلة من دعا، لقوله تعإلى:{قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا} [يونس : ٨٩]، فدلّ ذلك على أن من أمَّن على دعاء فكأنما قاله؛ فلهذا قال من قال: إن المأموم لا يقرأ لأن تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها؛ ولهذا جاء في الحديث: "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة"، وكان بلال يقول: لا تسبقني بآمين. فدل هذا المنزع على أن المأموم لا قراءة عليه في الجهرية، والله أعلم.